الهجـــاء

- الهجاء الشخصى: هجا ابن عنين الكثير من الأشخاص فـــى مجتمعه وعصره، وهو يعتمد دائمـــاً فـــى هجـــائهم علـــى الافتـــراء والمهاجمة والهوى الشخصى وموقفه الغاضب منهم.

يقول فى هجاء ابنى الحرستانى الملقبين بالصائن والعلاء، وقد قلب المعنى وجاء بضده[1]:

إبنـا الحرستانى فى لقبيهما ضد الـذى نعتـا بـه بـين الملا

فمهنك الأستار يدعى صائنا والسفلة السفلاء يدعى بالعلا

ويقول فى هجاء الرشيد النابلسى، وقد صُفع من خادمه[2]:

تعجب قـوم لصـفع الرشـيد وذلـــك مـــازال مـــن دابـــه

رحمت انكسار قلوب النعال وقـــد دنســـوها بأثوابـــه

فوا الله ما صفعوه بـــــها ولكنـــــهم صفعوها بـــه

وقال يهجو شيخا صوفيا يدعى بالملق[3]:

أخلق الشعر مدلويه وأهليه وأزرى الملـــق بالصـــوفيهْ(1)

حـاد عـن مـذهب التصوف إلا كثـرة الأكـل فيـه واللوطيـةْ

---

(١) الديوان ص: ١٨٥.
(٢) الديوان ص: ١٨٥.
(٣) الديوان ص: ١٨٦.

وقال على لسان الملك المعظم، وقد قيل له إن الفقيه الإسكندرانى بشرب الخمر خفية[٢]:

الله يعلم ما طلت من دمها وسفكه مستحلا بعدما حرما

لكن رأيت ذوى الجاهات تشربها ريا وتتعب فى تحصيلها العلما

ويقول فى هجو رجل يخدم المسجد الأموى، وقد أجراه على لسان المصحف الشريف، وفيه إشارة إلى هؤلاء الخدام الذين لا يكونون أهلا لخدمة دين الله[٣]:

مصحف عثمان صام من حنق رافع قدرى ما بالله خفضه

الزنكلونى صار يخدمنى يا رب عجل بالفأر والأرضه

والله ما بى انحطاط منزلتى وإنما بى شماتة الرفضه

ويقول فى هجاء واعظ قدم إلى دمشق واتهم بحب فتى يدعى نصيراً وله أخ يسمى عباساً يرمى بالدنيئة[٤]:

يا واعظ الناس ما تنفك من تعب معذباً بين إنعاظ وإفلاس

ما كان أغناك عن إلحاف مسألة لو كان فى استه نصير داء عباس

وهو سجل هنا هذه الظواهر الفاسدة وما يتناقله الناس عن الوعاظ من أحاديث لا تليق بمن يخدم المنابر.

---

(١) مدلويه: لقب ينبز به الرشيد البابلسى.
(٢) الديوان ص: ١٣٢.
(٣) الديوان ص: ٢٩٩.
(٤) الديوان ص: ٢٠٢.

وقال يتندر بالطبيب الموفق بن مطران[١]:

وقالوا أسعد بن الياس أضحى رئيسا لا حوته يد السعود

ولا أهجو الوجود وقد حواه فإن وجوده هجو الوجود

وقال يهجو النجيب والرشيد النابلسى وقد اعتكفا فى المسجد وهما يقرآن ديوان الرشيد[٢]:

إثنان فى الجامع المعمور ليس على كل البرية من صفعيهما حرج

هذاك قد أنف الفساق منه وذا تتلى عليه مساويه فيبتهج

وقد يكون هجاؤه الشخصى بمنزلة اللعب بأخلاق الناس والافتراء عليهم فى هجاء فاحش سريع فى لمحة خاطفة، قاصداً تناقله وعمومه بين الناس، يقول فى المرتضى بن عساكر[٣].

قولوا لزين الأمنا أخوك بالأمس زنا

....[٤]

وفى هجاء الرشيد النابلسى يوظف حرف الدال توظيفاً فنيا جيداً ويستخدمه فى كلمات الهجو؛ ليذكِّر القارئ بآخر حرف من اسم المهجو، يقول وقد قرنه بالرائحة الكريهة فى الأماكن الخبيثة[٥]:

---

(١) الديوان ص: ١٩٣.
(٢) الديوان ص: ٢١٤.
(٣) الديوان ص: ١٩٩.
(٤) البيت محذوف لفحشه.
(٥) الديوان ص: ١٨٧.

حمامنـــا بردهـــا شـــديد ومـــا علـــى نتنهـــا مـــن مزيـــد

كـــــأن فيها أبا المرجى ينشد مـــــــــا قاله الرشيد

ومن الهجاء الشخصى الذى يستخدم فيه الكلمات العامية قولـه فى هجاء عفيف الدين على بن عدلان وكان ينبز بالجرذان[1]:

شاورت بعض أخلائى وقلت له أريـد أن أودع كتبـى نجـل عـدلان

فقال ذلك جرذان ومصـــلحة أن لا يحط كتاب عند جـــــرذان

وقد تلاعب الشاعر باسم المهجو، فجاء بكلمة قبيحة على وزن اسمه وهى "جرذان" ثم استخدم ذلك المضمون فادعى أنه جرذان على الحقيقة، فحذر من إيداع كتبه لديه خوفا عليها من أكل هـذا الفـأر وقرضه لها.

وقد يصل الأمر إلى أن يهجو نفسه مع الآخرين، فقد وزع لـه مالاً ووكلوا معه من يجبيه يقول[2]:

مثلى وقد وافيت أطلب رفدكم جهـلاً ولـم يـكـلـى حجـى ينهـانى

مثل الظليم مضى يروم بجهله قرنـا فعـاد مصـلم الـآذان

وكلت بى صعب المراسى ملازما كالظـل يتبعنـى بكـل مكـان

لم أعش عن ذكر الإله فليتنى أدرى عـلام قرنـت بالشـيطان

---

(١) الديوان ص: ٢٣٨.

(٢) الديوان ص: ١٤٠.

وقد ضمن شعره الآية الكريمة: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ (١).

ويلاحظ على هجائه الشخصى أنه متأثر فيه بهواه الشخصى ونظرته الذاتية للمهجو، ويبتعد فيه عن أمور الحياة فى المجتمع ويقترب فيه من السب، ويتورط فيه فى فحش القول، وليس له قيمته فنية كبيرة سوى احتوائه على الطرائف والسخرية والنادرة المضحكة.

- الهجاء الاجتماعى: ومجاله الجرائم الأخلاقية والمفاسد الاجتماعية والعادات القبيحة والمعايب الإنسانية التى تسرى فى أوساط الناس. فابن عنين يشير إلى ظاهرة الغلمان وتفشى أمورهم فى المجتمع فى عصره، وكان بعضهم يتخذ للخدمة أو للمتعة أو لأمور أخرى، ففى هجاء الطبيب موفق الدين بن مطران، وكان يصحب غلاماً اسمه عمر، وكان متهما فى أخلاقه وسلوكه فيه، وقد نزل هجاءه منزلة الدعابة والسخرية والتلاعب(٢):

قالوا الموفق شيعى فقلت لهم ... هذا خلاف الذى للناس منه ظهر

وكيف يصبح دين الرفض مذهبه ... وما دعاه إلى الإسلام غير عمر

---

(١) سورة الزخرف آية: ٣٦.
(٢) الديوان ص: ١٣٤.

فهو يورى بكلمة عمر باسم الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ أما عمر المقصود فى البيت فى خادم المهجو، كان مغرما به يجعله يسير أمامه تعجبا وتغزلا فيه.

ويصور جانبا من جوانب ظاهرة الغلمان وهو جرأة هؤلاء على أمرائهم إلى الحد الذى وصل فيه الضرب، وكان هذا أثر من آثار ضعف الدولة والولاة وسط الزحف الصليبى وانشغال أرباب البيوت والقصور عن تقويمهم وتأديبهم، يقول فى هجاء المرتضى بن عساكر وقد ضربه مملوكه على وجهه لطما مما أثر فى لحيته فامتنع عن استقبال الناس(١).

إلى لحية المرء اللعين ارتقت يد لها فى صعود الحادثات سعود

وقد أصبحت مثل القرى اللائى أهلكت قديما فمنها قائم وحصيد

والشاعر متأثر بقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴾(٢)، وقد أجاد فى نقل معنى الهلاك إلى معنى هلاك آخر، حيث يصور الأثر الذى تركه الضرب على اللحية بزوال بعض شعرها وإبانته عن جلد الوجه، وبقاء البعض الآخر بالنبات الذى حصد بعضه وبقى آخره وهو تصوير طريف؟ لأن الشَّعر الطويل يشبه النبات القائم فى الأرض.

---

(١) الديوان ص: ١٩٨، ١٩٩.
(٢) سورة هود آية: ١٠٠.

ومن هجائه الاجتماعى إشارته إلى نهب المال العام، يقول فى القائم على دار الزكاة وكان يدعى ابن السائق، وقد نهب مالاً وبنى داراً له، وترك ابنه يعبث فى دار مال المسلمين[1]:

وسائق الصبيان أضحى ابنه ... يسرق من دار الزكاة الذهب

لا تسألوه وأسألوا داره ... فإنها تخبر عما نهب

ويتهم ناظر أموال اليتامى فى دمشق بسرقة الأموال، فقد أودعه مالا ثم جاء يطلبه فأبى رده، وهو أمر طبعى منه، لأنه آكل لأموال اليتامى، يقول[2]:

يا معشر الناس حالى بينكم عجب ... وليس لى بينكم يا قوم أنصار

هذا ابن كامل قد أودعته ذهبا ... صيابة ما لها فى العين مقدار[3]

وجئت أطلبها منه وقد عرضت ... فى السوق منى لبانات وأوطار

فقام ينفض كميه وينظر فى ... صندوقه وينادى جرّها الفارُ

ويصور انحلال أخلاق الناس وعاداتهم الخبيثة فى بعض البلدان التى نزلها، فقد كان فى بغداد رجل اسمه عمرو يتردد على امرأته رجل اسمه غياث تزعم أنه أخوها، فوجدهما يوما على حال لا تكون

(١) الديوان ص: ٢٣٧.
(٢) الديوان ص: ١٣٨.
(٣) الصبابة: الخالص من كل شىء. اللسان جـ٤/ ٢٥٣٢.

بين الأخوين، فمنعه من دخول داره، وتحاكما فلم يُمنع غياث من زيارة أخته يقول[1]:

غياث فاسمعوا قولي وعمرو لهم عندي أحاديث ظريفهْ

فزان ما عليه من جنام وقواد بتوقيع الخليفهْ

وهذا الذى أطغته النعمة وكثرة المال والثروة، وقد أثرى فزاد صلفا يقول فيه[2]:

ونعمة جاءت إلى سفلة أبطره الإثراء لما ثرا

فالناس من بغض له كلما مر عليهم لعنوا شاورا(٣)

وينوه بظاهرة البخل فى المجتمع، يقول فى هجاء رجل كان يعمل لأصدقائه كل سنة دعوة ويتبرم بها، وكان قد دعا ابن عنين وأصحابا لها[4]:

أحبابنا ما لهذا الهجر من أمد وحقكم عز صبرى وانتهى جلدى

أبيضة الديك حظى من وصالكم لا تفعلوا واجعلوها دعوة الأبد

فللعواذل منى حظ شيعته يوم الوليمة لا يلوى على أحد

عهدى به واليد اليمنى يكف بها غرب المدامع والأخرى على الكبد

---

(١) الديوان ص: ١٤٤.
(٢) الديوان ص: ٢٤١.
(٣) شاور وزير فاطمى قتله صلاح الدين الأيوبى.
(٤) الديوان ص: ١٤٦.

يقول للخبز لا يبعد مداك ولا أخنى عليك الذى أخنى على لبد[1]

- الهجاء السياسى: ويستخدم الهجاء السياسى الذى يضم فيه مجموعة خاصة من رجال الدولة وساستها، فهو يهجو رجال الدولة الأيوبية وعلى رأسهم مودود الشحنة والى دمشق وأصحابه من رؤساء الأعمال قائلاً[2]:

ما عند مودود من قلت مثالبه إلا المبارز إبراهيم نائبه

ومن سواه فكلب لا خلاق له قد أعجزتنى فما تحصى معايبه

المستشار عفيف الدين قد دميت يدى على لومه مما أعاتبه

وابن النفاية والتيس الشريف وجه س الكلب مشرفه والعلق كاتبه

والأقلف الكلب رأس الأمر صاحبه دي وان الأمير وجابيه وحاسبه

والأحمق الجاهل الكردى يسأل فى حب س العقيبة من علق يداعبه

قوم لو أنهم فى خدمة الفلكا لاً على لخرت بهم منه كواكبه

ويهجو ابن أبى عصرون وزير صلاح الدين الأيوبى، فيخاطب صلاح الدين بألا يشهده الحرب يقول[3]:

سمعت بأن محى الدين يغشى الـ وغى والحرب ضاربة المنايا

فلا تشهد بصفعان قتالاً فقوس النـدف لا تصمى الرمايا

---

(١) البيت الأخير مأخوذ من قول النابغة الذبيانى:

أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذى أخنى على لبد

ينظر ديوان النابغة ص: ٤٢.

(٢) الديوان ص: ٢٠٨، ٢٠٩.

(٣) الديوان ص: ١٣٠.

ويهجو الوزير الصفى بن القابض من وزراء صلاح الدين، فيتهمه بحب خادم والانشغال به عن أمور الدولة، فيقول[1]:

أبلغ رسالتى الصفى وقل له كيف استحال صفاؤه وتكدرا

يا معرضا ما وده وصفاؤه لوليه مما يباع ويشترى

كيف اشتغلت بخادم عن خادم ما جر جرما فى هواك ولا افترى

ويهجو النظام الكاتب والمحتسب فى دولة صلاح الدين قائلاً[2]:

لو أن لى بغلا إلى جد النظام ينتسب

أنفت من تحميله على عيال المحتسب

ويهجو الملوك من بنى أيوب، فيقول فى الملك الأشرف موسى وقد ولى حكم دمشق بعد الملك المعظم عيسى، وكان الأحق به محمد بن عيسى[3]:

وكنا نرجى بعد عيسى محمدا لينقذنا من لاعج الضر و البلوى

فأوقعنا فى تيه موسى فكلنا حيارى ولا مَنٌّ لديه ولا سلوى

---

(١) الديوان ص: ٢٠٦.
(٢) الديوان ص: ٢٠٦.
(٣) الديوان ص: ١٣٢.

وقد وظف قصة موسى – عليه السلام – مع اليهود التى ذكرها الذكر الحكيم فى قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾[1].

ويهجو جماعة فى دولة بنى أيوب قد وليت أمور الناس قائلاً[2]:

فى دولة الملك المعظم خمسة ... لا يؤمنون على قشور الطحلب

صهر المكرم والمكرم وابنه ... والحاكم المصرى وابن التنبى

والطحلب: خضرة تعلو الماء المزمن كأنه نسج العنكبوت لا قيمة له، والقشر أحقر ما فيه[3]. وذكر الطحلب يوحى بخيانة هؤلاء وتسلقهم، وأنهم لا يؤتمنون على الأشياء حتى لو كانت تافهة لا قيمة لها، فما بالك بأموال الدولة ومقدراتها ومصالحها العامة والعليا.

ويقول فيه وقد تندر وتفكه وأفحش[4]:

حاشا لعبد الرحيم سيدنا الـ ... ـفاضل مما تقوله السفل

وتب من قال إن حدبته ... فى ظهره من عبيده حبل

---

(١) سورة المائدة آية ٢٦.
(٢) الديوان ص: ٢٢٨.
(٣) اللسان جـ ٤/ ٢٦٤٥.
(٤) الديوان ص: ١٨٩.

هـذا قيـاس فـى غيـر سـيدنا يصـم إن كـان يحبـل الرجـل

ومن هجائه للقضاة ورجال الدين والفقهاء، وكان لهؤلاء تـأثير فى الحياة العامة آنذاك، ولهم حضور فى مجالس صلاح الدين، فهـو يقول فى فقيهين يتناظران أمام الناس فى دمشق وقد نبـذ أحـدهما بالبغل والآخر بالجاموس[1]:

البغـل والجـاموس فـى جـدليهما قـد أصـبحا مـثلا لكـل منـاظر
بـرزا عشـية ليلـة فتنـاظرا هـذا بقرنيـه وذا بالحـافر
مـا أحكمـا غيـر الصـيام كأنمـا لقنـا جـدال المرتضـى بـن عساكر
جلفـان مـا لهمـا شـبيه ثالـث إلا رقاعـة مدلويـه الشـاعر

وانظر إلى جمال اختيار كلمة (الجلفان) فى البيت الأخيـر ومـا بها من تعبير دقيق عن المراد؛ فالجلف: هو الجافى فى خلقه وخلقـه شبه بجلف الشاة أى أن جوفه هواء لا عقل فيه والجلف: الأحمـق، أصله من الشاة المسلوخة بلا رأس ولا قـوائم ولا بطـن[2]، أى أن هذين لا عقل لهما، فكيف يتناظران وهما فاقدا العقل؟!، وهـو هنـا يسجل ما كان له أثر عند الناس فى هذا المجتمـع، ورصـد عيـوب الفقهاء، وما كان يطلقه العامة عليهم من ألقـاب وكنـى، والتمـاس الأسماء المنبذة لهم.

(١) الديوان ص ٢٠٥.
(٢) اللسان جـ ١/ ٦٦٠، ٦٦١.

ويقول فى هجاء قاضى قضاة دمشق الجمال المصرى وكان يجلس فى شباك المسجد يحكم بين الناس، بينما الخطيب الدولعى خطيب المسجد قائم فى المحراب وقد نهب من المال الكثير[1]:

لما رأى الجامع أمواله ... مأكولة ما بين نوابه

جن فمن خوف عليه غدا ... مسلسلا من كل أبوابه

وكيف لا تعتاده جنه ... وقد رأى المسند لأربابه

القرد فى شباكه حاكم ... والتيس فى قبة محرابه

وإذا كان الشاعر قد تجاوز بهجائه للقضاة والفقهاء إلى مرحلة من اللعن والسباب والشتم، فإن المؤرخين يذكرون عن هذا العصر "أنه تولى القضاء فى دمشق عدد من القضاة الذين لم يتحروا العدل فى أحكامهم، ومنهم ثلاثة مشهورون بالفسق والظلم هم نجم بن الصدر سنى الدولة وكان حاكما جائراً فاجراً ظالماً متعديا وابن الجمال المصرى ولم تكن طريقته مستقيمة، والرفيع الجيلى الذى فعل بالناس الأفاعيل"[2] مما زاد عاطفته نقمة وغضبا واحتقاراً لهم.

- الهجاء الفاحش: ظهرت شخصية الشاعر فى هجاء ابن عنين الذى استولت عليه عوامل الانحطاط فى مجال الأخلاق والآداب والسلوك، وغلبت عليه أسباب الحقد والسوء والتبذل ونهش الأعراض، وهو فى ذلك لا يترك لضميره الإسلامى أدنى تصرف،

(١) الديوان ص: ١٤٣٠.
(٢) دراسات اجتماعية فى الأدب الأيوبى والمملوكى ص: ١٥٠، ١٥١.

والإسلام يرفض هذا القذف؛ لأنه انحراف نحو الانحـــلال والافتـــراء وسوء الخلق.

يقول فى القاضى الفاضل وابن شيث[1]:

ذقن عبـد الرحيم مع شاربيه وعذاريه فى استـ عبـد الرحيم[2]

ومن فاحش هجائه جمعه بين اثنين جمعتهمـــا صـــفة جســـدية معيبة، أحدهما: أحدب فيه بروز فى ظهره وثانيهما: فيه انحراف فى صدره وتقعر، فيجمع بينهما فى أفحش صورة، يقـــول فـــى هجـــاء السديد الفاضلى والقاضى الفاضل[3]:

سألت السديد الفاضلى وقد بدا عليـــه هـــزال بعـــد شـــدة أســـره

أكنـــت مريضـــا قـــال كـــلا وإنمـــا تخيرنـــى عبـــد الـــرحيم لســـره

فقلـــت لـــه إن القطـــم اختيـــاره لأوضـــع فحـــل مـــن تفـــاقم أمـــره

ولكنـــه حـــق علـــى اللـــه وضـــع مـــن ترافـــع جهـــلا أو عـــلا فـــوق قـــدره

وهـــب أن مـــا يعـــزى إليـــه مصـــدق وأنـــك قـــد أقـــررت فينـــا بـــإمره

فما هذه ما بـين ثـديبك قـال لـى تقعـــر صـــدرى مـــن محـــدب ظهـــره

---

(١) الديوان ص: ١٩٠.
(٢) كلا الرجلين اسمه عبد الرحيم.
(٣) الديوان ص: ٢١٩.

ومن فحشه فى الهجو قوله فى ابن الجوزى إمام المسجد الأموى[1]:

إذا ما امتطى الجوزى أعواد منبر وظل يناغى الفاجرات ويستخذى[2]

فلا امرأة إلا وباد وداقها ولا رجل إلا وغر موله يمذى

فهو يضع يده على بعض مثالب الوعاظ، هؤلاء الذين يتركون الأمور التى تهم الناس دينياً واجتماعيا، ويكون جل حديثهم عن النساء وما يخصهن من أشياء دقيقة، ويتناولون ذلك فى صورة فجة تثير الشهوات، وكأن الدين كله ما هو إلا حديث عن المرأة وما يخصها من أمور شخصية، وهذا يحدث كثير ولا ينكره الناس.

وهذا ما يجعلنى اختلف مع الدكتور مصطفى الشكعة فيما ذهب إليه من القول فى الهجاء بين بشار وابن عنين، حيث يقول فى ابن عنين: "إن مثل هذا الشاعر مخيف؛ لأنه يهجو الوضيع ليخيف أصحاب القوة والمكانة بين قومهم، غير أنه أقل خطراً من بشار، لأنه يهوى الهجاء ولكن بشاراً يحترفه، وفرق بين هاو ومحترف، وبشار أشد خطراً أيضا لأنه كان يهجو أصحاب المكانة دون غيرهم والمشهورين من الرجال دون المغمورين"[3] فهو يقرر أن ابن عنين أقل خطراً من بشار فى فن الهجاء لأسباب منها: أن ابن عنين يهوى

(١) الديوان ص: ٢٢٦.
(٢) خذا: خضع واسترخى وكان سليط اللسان. اللسان جـ٢/ ١١٢٠.
(٣) رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية ص: ٦٦٨.

الهجاء وبشاراً يحترفه، وابن بـرد كـان يهجـو المشـهورين دون المغمورين.

والحق إن ابن عنين لم يكن أقل خطراً من بشار فى الهجاء بـل إن شئت قلت إن فيه خطورة شديدة لا تقل عن خطـورة بشـار، ولا أريد أن أذهب إلى أنه أعظم من بشار فى الهجاء، فالموازنة بينهمـا ليس مجالها هنا وكلٌ مصيب خبيث فى هجائه، ويختلف عـن الآخـر فى عصره وبيئته وبواعثه وظروف حياته، والمفاضلة تحتـاج إلـى كشف دقة كل منهما فى الأساليب والطرائق الفنية والتصوير ... .

نعم هذا الشاعر مخيف، مخيف جدا، والبحث جعلنـى لا أذكـر أبياتا فى الهجاء عنده تارة، وتارة اكتفى بوضع نقـاط فـى مكانهـا خشية على ذوق القارئ الكريم واحتراماً له، ألـم يشـعر الـدكتور الشكعة بأنه مخيف فى نماذج هجوه؟ وتأتى خطورته من أنه لم يكـن يتكسب بالهجاء مثل بشار ولم يكن لديه وسيلة للغنى واقتناء القصور والضياع ولم يقتصر فى هجائه على العامة وأصحاب الشأن الوضيع – كما قال الدكتور الشكعة؛ بل هجا السـلاطين والـوزراء والقـواد والقضاة والفقهاء وأصحاب الجاه والقوة فى دمشق.

وما ذهب إليه الدكتور الشكعة بأن ابن عنين هاو فى فن الهجاء وبشار محترف هذا يجعله أشد خطراً من بشار فى التهتك والابتـذال فى الأخلاق، لأن الطبع يأخذ بأيدى أصحاب الهواية فى الفن أكثر من المحترفين، والهاوى أشد التماساً للصورة الفنية التى يذهب بها إلـى حد السخرية والاستهزاء والتهكم أكثر من المحترف، وأمر آخر يؤيد

ابن عنين فى التفوق وهو وجوده فى المنفى بعيداً عن المهجو مما جعله أكثر حرية فى الهجاء والوصول به إلى درجات عالية من الإيلام والوجع.

وإن شئت فاقرأ هذه النماذج ولا مناص من ذكرها كى تكون دليلا على أنه ليس أقل من بشار خبثا وهجوا، يقول فى هجاء ناظر الخزانة والأوقاف بدمشق[1]:

قولوا لزين الأمنا أخوك بالأمس زنا

وصار فى ثقبته أثر المنى مجبنا

ويقول فى هجاء الرشيد النابلسى[2]:

قالوا الرشيد بغاؤه مستحدث كسبوا خطيئته وباؤوا باثمه

وما ذاك إلا عادة مألوفة طبعا له مذ كان فى بطن أمه

كانت غراميل الزناة ....

فلذاك يشتاق المنى لأنه منه تركب لحمه مع عظمه

ويقول فى هجاء القاضى الفاضل[3]:

كل ذى أُبنة له واحد يعـ ـلوه فى حال نيله إياه[4]

وله من عبيده خمسة سو ـد كبار أيودهم أشباه

---

(١) الديوان ص: ١٩٩.
(٢) الديوان ص: ١٨٧.
(٣) الديوان ص: ١٨٩، ١٩٠.
(٤) الأبن: التهمة. اللسان جـ١/ ١٢.

واحـــــد فوقـــــه وآخـــــر ....

ويـــداه فـــى أصـــل أيـــدى غلاميـــ ـــــه التـــــذاذا وآخـــر لقفـــاه

فهل قائل هذه النماذج أقل خطراً من بشار؟! بل أقول أين ابـــن برد من هذا الخبيث؟

ويصور شعور المهجو، وينقل إليك شعوره وخاصة هذا اللحـــز البخيل فى حالة العطاء، يقول فى هجاء بدر الدين الشحنة[1]:

جـاء الشـتاء ولـيس عنـدى جبـة فطفقـت أطلـب دار بـدر الـدين

فتصـــحفت لمـــا قراهـــا حبـــة فبـــدا يواصـــل زفـــرة بـــأنين

وشـــكا نيـــاط فـــؤاده وحـــرارة فـــى قلبـــه تربـــى علـــى ســـجين

وغـــدت فرائصـــه تهـــز كأنهـــا ســـعف عرتـــه الـــريح فـــى تشـــرين

ينسى فيسكن ما بـه وتعـوده الـ ذكـرى فيصـرع صـرعة المجنـون

فشـــكرت ربـــى لوقراهـــا حبـــة لقتلتـــه عمـــدا بـــلا ســـكين

فهو يبين أثر شعوره فى داخله وخارجه، فالمهجو رجل حينمـــا يُطلب منه شيئاً يملأ صدره غيظاً وغما، ثم يزفـــر بـــه مـــن شـــدته ويتقطع نياط قلبه من شدة الكرب وتزيد حرارة دمه زيادة عاليه فهى تغلى فيه كالمرجل، وقد بان أثر داخله على خارجه ففرائصه ترتعـــد ارتعاداً شديدا وترتجف أوصاله، ثم ما يلبث أن ينسى ما يطلب منـــه من العطاء فيبرد ويسكن ويهدأ لكن سرعان ما تعاوده الحالة النفسية

(١) الديوان ص: ٢٠٣، ٢٠٤.

والعصبية مرة أخرى، لكنه يخر مغشياً عليه وهكذا، والمهجو يحسب أن العطاء المطلوب منه حبة، وهى من تافه الأشياء، ولتكن حبة بر أو شعير فما باله لو علم أن المقصود جبة تستر عورة الطالب وتقيه برد الشتاء لو عرف ذلك لفارق الحياة، فهو يصور لك صورة الوجه والنفس وحركات الجسم وردود أفعاله وتمسكه بصفة الشح.

وقد اتخذ عدة طرق فنية فى هجائه منها:

- الجمع بين طول النفس وقصره فى الهجاء، فله قصيدة مطولة هى "مقراض الأعراض" التى قال عنها ابن خلكان: إنها تتجاوز خمسمائة بيت[1]، فهو يريد أن يجعلها وثيقة طويلة وسجلا حافلا فى ثلب أعراض من قصد خاصة رجالات دمشق من ذوى الشأن والجاه من الوزراء والقضاة والفقهاء والكتاب والأطباء والعمال، كذلك لجأ إلى النظم القصير اللاذع الذى لا يتجاوز ثلاثة أبيات أو بيتين، وربما قصد من ذلك سهولة حفظ هذا اللون وسرعة انتشاره وسيرورته بين الناس؛ لقصره مع التركيز على أن يكون خفيف الروح به الصورة الهزلية التى تضحك، وهذا الذيوع والخفة والقصر يكون أوجع وأقسى، لتناقل الألسنة له.

من تلك المقطعات قوله فى القاضى الفاضل عابثا بإنسانيته[2]:

إذا كلبة ولدت سبعة فقف واستمع أيها السائل

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٥/ ١١٤ والقصيدة لم تصل إلينا فى ديوانه كلها.
(٢) الديوان ص: ١٩٠.

وإن كلبة ولدت تسعة تزاوجن فالفاضل الفاضل

وفى هجاء أصحاب الحرف يهجو المطواع الكحال منوها بعدم دقة آلة الكحل قائلاً[1]:

رأيت عند المطواع ميلا فى طول شبر وعرض قتر[2]

فقلت هذا لأى عين فقال هذا لعين ظهرى

ولعل نزعة السخرية والفكاهة تفسر ميله إلى المقطوعات، لأن الكثير منها كان وسيلة لعرض مقدرته فى الهزل السريع من خلال رؤية خاطفة وسريعة، لكن ميله إليها قد ترك آثاراً غير محمودة على المضمون.

- الفكاهة والسخرية ومن هذا اللون قوله لصلاح الدين ألا يصحب الوزير ابن عصرون فى الحرب[3]:

سمعت بأن محى الدين يغشى الـ وغى والحرب ضارية المنايا

فلا تشهد بصفعان قتالاً فقوس الندف لا تصمى الرمايا

ويقول هاجياً وزير الخزانة لدولة صلاح الدين[4]:

---

(١) الديوان ص: ٢٠٧.

(٢) **القتر**: نصال الأهداف، وقيل نصل حديد الطرف قصير، أو القصب الذى ترمى به الأهداف. اللسان جـ٥/ ٣٥٢٧.

(٣) الديوان ص: ١٣٠.

(٤) الديوان ص: ٢٠١.

أبـا البركـات مـا جعلـت يقينـا لـــك البركـــات إـــلا فـــى القـــرون

– التندر بالعيوب ومن ذلك قوله عندما أمر الملك العادل بنـــزح ماء خندق القلعة بدمشق ونال الناس من ذلك جهد عظيم[1]:

أرم من نـزم مـاء البـرج يومـا فقـد أفضـى إلـى تعـب وعـى

مر القاضى بوضع يديـه فيـه وقـد أضـحى كـرأس الـدولعى

فقد جاء بهجاء معنوى وجسدى لرجلين من رجال الدولة وهما القاضى الفاضل والفقيه الدولعى، فيشير إلى الملك العادل بـــدلا مـــن نزح الماء من الخندق أن يضع القاضى يديه فى الماء، فيجف ويذهب من نحسه وشؤمه وقلة بركته؛ فهو رجل لا خير فيه، فيضحى البئـــر بعد ذلك مثل رأس الفقيه الدولعى إشارة إلى أن رأسه صـــلعاء بـــلا شعر أى خالية جرداء، فتندر بشؤم القاضى وصلع الدولعى، والبيـــت الأخير فيه براعة تركيب هجاء على هجاء آخر.

– إخراج الهجاء مخرج النكتة المستملحة كقوله فى صبى يعمل فى بيع الطيب[2]:

هـــذا ابـــن هـــرون الـــذى فـــى عصـــرنا لا يفلـــح

يبيـــع مســـكاً أذفـــرا بيـــع الحـــراء أربـــح

(١) الديوان ص: ٢٣٥.
(٢) الديوان ص: ٢٢٩.

والحراء: شيء يؤكل له حرارة فى الحلق كالفلفل، فهو ينعى على هذا الزمن الذى تبدلت فيه الأحوال من الأحسن إلى الأسوء أو يندد بأناس عصره فى وطنه الذى نفى منه، فبدلا من التطيب بالمسك يدعو عليهم بحرقة الفم والبطن والجسد.

- التلاعب باسم المهجو، ومنه يهجو الرشيد النابلسى وكان يلقب بـ (مدلويه) [1]:

قيل لى إن مدلويه بن بدر قتلوه بالصفع أشنع قتل

قلت عظمتم القضية فى دل وخليع قد رقعوه بنعل

فقد تلاعب تلاعباً خفيا لا يدرك إلا بدقة الملاحظة، حيث اشتق كلمة (دلو) من لقب المهجو (مدلويه) فلو حذفت الميم والياء والهاء لصارت (دلو)، ووصف الرجل بالدلو فيه من الحقارة والذلة ما فيه، فهو حقير ذليل من سفلة الناس، منزلته وشأنه مثل الدلو الذى يتطامن إلى أسفل البئر دائما وانظر إلى صورة الدلو البالى المهمل الملقى على شفا البئر، وقد ثقب فى أماكن كثيرة، ورقعه صاحبه بجلد من أخس الجلود وهو جلد النعل القديم.

وقال يهجو بدر الدين الجزرى وكان يسمى (لاجين) [2]:

وراحل سرت فى صحب أؤمله تبارك الله ما أشقى المساكينا

جئنا إلى بابه لاجين نسأله فليتنا عاقنا الموت ولا جينا

---

(١) الديوان ص: ١٨٧.

(٢) الديوان ص: ٢١٥.

لاجين نسأله ميتا لا حراك بـــه مثل النصارى إلى الأصنام لاجينـــا

فقد تلاعب باسم المهجو وذكره فى البيت أربع مرات بمعنـــى: اسمه، وبمعنى اللجوء، والمجئ والالتجاء، بالإضافة إلى التورية به.

– حسن توليد المعنى، يقول فى رجل يعمل فى طـــب العيـــون، وكان يلقب بـــ (الصباغ) [1]:

لـــو أن طـــلاب المطالـــب عنـــدهم علـــم بأنـــك للعيـــون تعـــور

لأتـــوا إليـــك بكـــل مـــا أملتـــه مـــنهم وكـــان لـــك الجـــزاء الأوفـــر

ودعـــوك بالصـــباغ لمـــا أن رأوا يعشـى العيـون لـديك مـاء أصـفر

فقد تيقظ للقب الرجل وولَّد منه معنى دقيقا فى الهجـــاء، حيـــث إنه يعمل فى تطبيب العيون، فالتمس منه ذلك المرض الذى يصـــيب العين وهو الماء الأصفر المعروف وبين كلمتى (الصباغ) و(الأصفر) مراعاة نظير؛ لأن اللون الأصفر مما يصبغ به، ولم يتكلف الشـــاعر فى قوله: (ماء أصفر)؛ لأنه مما يصيب العين على الحقيقـــة، فهـــو يحذر من يريد العلاج عند هذا الرجل، بأنه سوف يدرك بصره ذهـــاب وضعف من أثر علاجه، وعاقبته مرض الماء الأصفر فى العين مـــن فعلة هذا الصباغ، فالصبغة منه غير مســـتنكرة؛ لأنهـــا مـــن عملـــه وصنعته.

– الرد بالمثل يقول فى هجاء ابن سيدة[1]:

---

(١) الديوان ص: ٢٤٠.

قل لابن سيدة وإن أضحى له خول تدل بكثرة وخيول

ما أنت إلا كالعقاب فأمه معروفة وله أب مجهول

فكلمة "خول" إما أن تكون بمعنى الخال أخو الأم، فتكون جمعاً شاذا، لأن جمعها أخوال، وأخولة، وخئول وخؤلة، وإما أن تكون بمعنى خول الرجل بمعنى حشمه وهو اسم يقع على العبد والأمة، فخول جمع لخائل وهو الراعى، والخول: العبيد والإماء وغيرهم من الحاشية، والخول: حشم الرجل وأتباعه يقع على العبد والأمة مأخوذ من التخويل أى التمليك، والخول: الرعاة(٢).

إذا البيت له معنيان الأول: إذا كانت خول جمع لخائل وهو الراعى يكون التوجيه: إن هذا الرجل مهما أصبح له من الرعاة الذين يتباهون بكثرة النعم والمال والخيل، فإنه ليس له نسب أو أصل، فلا يعرف له أب، فإذا كان قد صار ذا جاه وشأن فمثله مثل العقاب عظيم الطيران والتحليق والعلو فى الفضاء، فهو عالى المكانة بين الطيور لكن لا يعرف له أب، فأمه قد لقحت من أى طائر أو عقاب.

والثانى: يوجه على أساس خول جمع الخال وهو أخو الأم على شذوذ الجمع، والمعنى أنه مهما كان لهذا الرجل من أخوال كثر يتباهى بهم ويتباهون بكثرة عزهم وخيلهم – والعرب إنما تفخر بالعم لا بالخال – فإن أختهم أم هذا المهجو تسأل من أين جاءت بابنها؟

---

(١) الديوان ص: ٢٣٥.
(٢) ينظر اللسان جـ٢/ ١٢٩٣.

وفى هذا إنكار عليها فى فعل الفاحشة، فجاءت بابنها سفاحا من أى رجل شأنها شأن العقاب التى تتزاوج بأى عقاب يأتيها ثم يغادرها ولا يعود مرة أخرى، فيبقى ولدها مجهول الأب والنسب وهذا هو الأقرب للصواب.

- التخلص الفكه ومنه قوله يهجو شاعراً بلغه أنه هجاه[1]:

لا غرو إن نال اللئيمً بهجوه منى منالاً لم تنله كرام

كم من دم أردى الكماة مرامه يوم الوغى وأراقه الحجام

فقد صور حاله فى بلوغ اللئيم منه بالهجو مبلغا عظيما بينما لم يستطع ذلك الكرام، بحال الفارس المغوار فى الحرب لم ينل الكماة من دمه شيئا بينما أراق الحجام الكثير منه.

ومما يعاب عليه فى هذا الباب الهجو بالصفات الجسمية كقوله[2]:

أرى الناس لا يرقى إلى المجد منهم سوى ناقص أو ناقض فى الأضالع

يقصد القاضى الفاضل وكان به حدب فى ظهره.

وقد يكون هذا الهجاء عارٍ من الصدق كقوله فى صلاح الدين الأيوبى[3]:

---

(١) الديوان ص: ٣٢٢.
(٢) الديوان ص: ٢١٠.
(٣) الديوان ص: ٢١٠.

سـلطاننا أعـرج وكاتبـه ذو عمـش والـوزير منحـدب

فإذا كان كاتبه به عمش فى عينيه ووزيره القاضى الفاضل منحدب فإن صلاح الدين ما كان به عرج، فقد كان فارساً محارباً شجاعاً يجيد الفروسية وركوب الخيل والسباق والسباحة والقتال بالسيف والرمح،

والهجاء بالمعايب الجسيمة غير مستحسن فى الشعر ونبه عليه النقاد يقول قدامة: "إنه متى سلب المهجو أموراً لا تجانس الفضائل النفسية، كان ذلك عيباً فى الهجاء، مثل أن ينسب إلى أنه قبيح الوجه أو صغير ...." (١).

ويعاب عليه إيراد الكلمات البذيئة الفاحشة مما يكرها ويزدريها الذوق، كقوله فى هجاء حكام بنى أيوب حين نفى من دمشق(٢):

لو كنت أسود مثل الفيل هامته عبل الذراعين فى عزموله كبر

كانت حوائج مثلى عندكم قضيت لكننى أبيض فى أيده قصر

فالإضافة إلى التلميحات العارية من الأدب والخلق التى تهتك الحياء، نجد الألفاظ التى يعلن بها الفحش والبذاءة على المهجو.

ومن فحش نظمه قوله(٣):

---

(١) نقد الشعر تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجى ص: ١٨٧.
(٢) الديوان ص: ٢٣٦.
(٣) الديوان ص: ١٩٠.

ذقن عبد الرحيم مع شاربيه وعذاريه فى است عبد الرحيم[1]

وارم بالسب بخل شيث ولا تخـ ـش تجده تيساً بقرن عظيم

ومن فاحش هجائه الذى لا يستساغ ولا يقبله الذوق الإنسانى أو الفنى، لأنه يقترب من السب والقذف قوله فى الوزير ابن عصرون وزير صلاح الدين[2]:

لما تشكى ابن عصرون إلىَّ حمى فى سفله حار فيه كل بيطار

وقال داء عضال قد رميت به أعيا وقصر عنه كل مسبار[3]

طعنته بقوى المتن معتدل صدق الأنابيب كالخطى خطار

فقال لما بدا رمحى يجوب فلا أعفاجه مسئدا كالمدلج السارى[4]

لله درك شكرا للصنيعة بى من قابس شيط الوجعاء بالنار[5]

فقد طعن فى أخلاقه وسلوكه، بل إنه نزله منزلة الحيوان أو الدابة فى قوله: "بيطار" وهو معالج الدواب.

ومما يؤخذ عليه التوظيف غير الجيد للقرآن الكريم فى الهجاء يقول فى هجاء الطبيب موفق الدين وغلامه عمر[6]:

---

(١) عبد الرحيم الأول هو الوزير بن شيث، والثاعى القاضى الفاضل.
(٢) الديوان ص: ١٩١.
(٣) المسبار: ما سُبر به وقدر به غور الجراحات، أو ما تجعل فى الجرح من فتيلة ونحوه. اللسان جـ ٣/ ١٩٢٠.
(٤) مسئداً، السأد: سير الليل كله. اللسان جـ ٣/ ١٩٠٥.
(٥) شيط: الشيط: الحرق. اللسان جـ ٤/ ٢٣٧٥.
(٦) الديوان ص: ١٩٥.

فقلت يا قوم إن فى عمر ... معذرة إن سمعتم عذرى

شكت له أخته لهيب حمى ... فى حرها تثير كالجمر

وحكة فى نواتها كدبيـ ... ـب النمل لا تأتلى بها تسرى

وعزه داؤها وقد شهدت ... له رواة الأخبار بالخبر

وكان هذا يقوم بالناس فى الحمـ ... ام هذا جليلة الأمر

فجاز هذا الأستاذ أيده اللـ ... ـه إليها يوما مع العصر

وكان قد نام من كلالته ... وطام عنه الرداء ولا يدرى

.... (١)

فقال هذا يكون ممتهناً ... مضيعا لا رضى عن الدهر

ولم يزل بالمحال يخدعه ... حتى أتاها به على قدر

فالقارئ لا يدخله ريب فى أن البيت الأخير مأخوذ من قوله تعالى: فى قصة موسى عليه السلام: ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾(٢) فقد وظف

(١) حذفت الأبيات لفحشها.

(٢) سورة طه آية: ٤٠.

الآية الكريمة فى معنى قبيح وهو فاحش الهجاء، وهذا مرفوض، إذ ينبغى أن يحل القرآن الكريم عن مثل هذا الهراء.

ويؤخذ عليه عدم الدقة فى توظيف المعطيات الدينية كقوله فى هجاء موسوس يتردد فى النية وتكبيرة الإحرام[1]:

وبارد النية عاينته يكرر الرعدة والهزه

مكبراً سبعين فى مرة كأنما صلى على حمزه

فقد صور هذا المتردد فى نيته وكثرة أدائه لتكبيرة الإحرام بصلاة النبى – ﷺ– على حمزة بن عبد المطلب يوم أحد، حيث صلى عليه سبعين مرة، والجمع بين الفعلين ليس جيداً، ففعل هذا الشخص مذموم مكروه؛ لأنه لا يدرى ما يفعل، وفعل الرسول الكريم – ﷺ– محمود ورحمة ودعاء، فلا تناسب بين الصورتين، إذ أن النبى – ﷺ– لم يكن متردداً حتى يقيم الشاعر وجهاً من الشبه بين الحالتين.

ومن حسن توظيفه للقرآن الكريم قوله فى هجاء رجل يعمل كحالاً للعيون[2]:

وبكفك الميل الذى يحكى عصا موسى وكم عين به تتفجر[3]

(١) الديوان ص: ٢٤٣.
(٢) الديوان ص: ٢٤٠.
(٣) الميل: هو الذى يكحل به البصر، ومنه ميل الكحل، وميل الجراحة. اللسان جـ ٦/ ٤٣١١.

فالبيت نظر فيه الشاعر كقوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (١)، فهو يصور الميل الذى يكحل به هذا الكحال المهجو بعصا موسى – عليه السلام – الذى تفجرت منه عيون الماء بجامع انفجار ونبع الماء فيهما، فيحذر من التكحيل عند هذا الرحل؛ لأن العيون التى تكتحل لديه سوف ينفجر ماؤها، فتصاب بالعمى، فهو لا يكحل برفق وهوادة ليصلح بصرها بل يضربها ضربا شديداً متناسياً أنها عين بشرية، فتنفجر كضرب موسى – عليه السلام – بعصاه الحجر، فانفجرت منه المياه الغزيرة، فسيدنا موسى عليه السلام كما هو معلوم من الآية الكريمة كان يضرب بعصاه حجراً جلموداً لا يضره ضرب العصا، وذلك الكحال لا يكحل عينا بل يضربها بميله وكأنه يضرب حجراً من الصخر الأملس مثل حجر موسى.

ومن هنا يأتى التوظيف والاستفادة من الآية الكريمة استفادة جيدة وحسنة، مع التباين بين الموقفين، هذا يضرب بميله العيون فينفجر ماؤها فتعمى فيحدث لها ضرراً كبير، وموسى عليه السلام فجر الماء بعصاه فنفع قومه وسقاهم، والأول يفسد على الناس نور أعينهم، ونبى الله أصلح حياة قومه.

---

(١) سورة البقرة آية: ٦٠.

وقد عبر الشاعر بـــ (يحكى) ولم يقل مثل أو شبه؛ لأنه يقصـــد أن يحكى العصا فى فعلها لا فى صورتها، فأضاف بقوله (يحكى) نقل الحركة والعمل للصورة المتخيلة، و(كم) للتكثير أى إن هذا هو فعـــل الكحال الدائم وإصابته المتكررة للعيون بالعمى. و(عين) فـــى البيـــت فيها تورية فالعين المرادة هى عين من يكتحل وهى حاســـة البصـــر، والعين الأخرى التى وظفها من الآية الكريمة هى عين المـــاء التـــى تفجرت من عصا موسى ومن لطف الصـــورة أن العـــين الإنســـانية المبصرة وعين الماء كلتاهما بهما ماء على الحقيقة، الأولـــى تفيـــد الإبصار والرؤية واستفادة حركة الحياة والثانية فائدتها أن لا حيـــاة من دونـها.

مظاهر تعانق الحنين والهجاء فى القصيدة عند ابن عنين

يتعانق شعر الحنين مع شعر الهجاء فى القصـــيدة عنـــد ابـــن عنين، فلا يأتى أحدهما إلا وهو مرتبط بالآخر إن تصريحا أو تلميحا، مما يدل على تلازم الغرضين فى التجربة الشعرية لديه واتساقهما فى عاطفة فنية واحدة، فالقارئ وهو يقرأ الحنـــين يضـــع يديـــه علـــى الهجاء، كما يشير إلى الحنين وهو يقرأ الهجاء، ومن تلك المظاهر:

- مزج الغرضين فى مقدمة القصيدة، مثل مقدمة قصيدته التى يمدح بها الملك العادل ويستأذنه فى العودة إلى دمشق، فهو يتمنى أن

يسرى إليه طيف محبيه من وطنه، ويذكر الوشاة والخصوم الذين غدروا به وتسببوا له فى الغربة، يقول[1]:

ماذا على طيف الأحبة لو سرى وعليهم لوسا محونى بالكرى

جنحوا إلى قول الوشاة فأعرضوا والله يعلم أن ذلك مفترى

يا معرضا عنى بغير جناية إلا لما رقش الحسود وزورا

فهو يذكر حنينه إلى وطنه متمثلا فى طلب طيف الأحبة أن يسرى إليه، وينوه هاجيا بما فعله الوشاة والحساد به، ويصورهم بالحيات والأراقم المرقشة فى قوله: (رقش) الذى يوحى بهذا التصوير؛ فالترقيش يعنى: "التحريش، وتبليغ النميمة، والتسطير فى الصحف، ورقش كلامه زوره." [2] فهو يصور الحسود فى صورة الحية الرقشاء وهى من أخبث الحيات وأطلبها للناس، وهذا يشير إلى الذم والهجو، كما أن لفظه (زورا) تصور ما ينقل على ألسنتهم من بهتان وكذب وأباطيل.

– ارتباط غرضى الحنين والهجاء فى القصيدة بحيث يكونان غرضا واحدا مثل قصيدته (مقراض الأعراض) وهى قصيدة مطولة تتكون من موضوعين هما الحنين والهجاء حيث حن فيها إلى دمشق حنينا يدل على طول الغربة وآلام الاغتراب، وهجا فيه جميع رجال دمشق وساداتها، ويربو عددهم على العشرين رجلا ما بين وزير

(١) الديوان ص: ٣.
(٢) اللسان جـ٥/ ١٧٠٣.

وقاض وفقيه وكاتب وخطيب وطبيب وحارس وقائم على بيت المال أو الزكاة .....

ومنها يقول فى الحنين[1]:

شوقا إلى ساكنى دمشق فلا عدت رباها مواطر السحب

منازل ما دعا تذكرها إلا ولبى على النوى لبى

ومنها يهجو الطبيب موفق الدين:

المدعى أنه بحكمته علم بقراط صنعة الطب

وهو لعمرى أخس من وطئ التر ب وأولى باللعن والسب

– فى قصائد الحنين الخالصة لا ينسى أن يعرج إلى الهجاء حتى ولو كان بالتلميح، كذلك الأمر فى قصائد الهجاء، يقول فى إحدى قصائده التى يحن فيها إلى دمشق[2]:

ولو أنى خيرت فى هذه الدنـ يا لما اخترت غير قومى وداري

فهذه ثورة باطنة وصياح مدوٍ يهجو فيه الذين استغنوا عنه، بينما هو باق على وطنه وأهله لا يرضى بهما بديلاً، ويلوم الذين غربوه عنهما.

– تعانق الحنين والهجاء فى نفس شعرى واحد، يقول[1]:

---

(١) الديوان ص: ١٧٩، ١٨٠.
(٢) الديوان ص: ٧٦.

وقائــل إن فــى الأســفار فائــدة يوســعن فــى الــرزق ذا مــال وذا خلــق

وقد مضيت إلى أقصى الذى ذكروا وجئــت أرعــن والشــلاق فــى عنقــى[٢]

فهو يقبح رأى من قال إن للأسفار فوائد معنويــة فــى الخلــق والسلوك ومادية فى المال والرزق – وهذا لا إنكار فيه على من قاله – لكنه له رأى آخر فى السفر، فلا فائدة منه روحيا ولا ماديــا، فقــد باء بأسفاره رجلا (أرعن) أحمقاً أهوجاً فقيراً لابساً المخلاة فى عنقه، لكن إذا علمنا أن رأيه ينطلق من سفر نفى وطرد من وطنــه لا مــن سفر رحلة وسياحة، فلا إنكار عليه فيما ذهب إليه، وفى البيتين مزج بين الحنين بذكره الأسفار، فقد كان يتمنى أن يكون فقيراً مرماً فــى وطنه وإلا ينفى ولو أصاب الغنى والثورة، فشعوره شــعور المنفــى الغريب، والبيت الثانى يتضمن هجاءه لنفسه وللآخرين فهــو يســفه آراءهم؛ فلم يكسب من السفر سوى الحمق والفقر.

– تلازم الحنين والهجاء فى الفكرة الواحدة وخدمــة أحــدهما للآخر وتقويته يقول[٣]:

فعــلام أبعــدتم أخــا ثقــة لم يجترم ذنبــا ولا ســــــرقا

---

(١) الديوان ص: ٢٤١.

(٢) يقول محقق الديوان الأستاذ خليل مردم: إن الشلاق شــبه مخــلاة للفقــراء والمتسولين بلغة ربيعة. هامش الديوان ص: ٢٤١، بينما أجد فى اللسان أن الشولقى هو من يبيع الحلاوة بلغة ربيعة. اللسان جـــ٤/ ٢٣١٦.

(٣) الديوان ص: ٩٤.

انفوا المؤذن من بلادكم إن كان ينفى كل من صدقا

– بعض شعره يمكن تصنيفه على أنه من باب الحنين تارة ومن باب الهجاء تارة أخرى، انظر إلى هجائه لمدينة بخارى التى حلَّ بها حيث يمكن عده من شعر الحنين لوطنه لدلالته على الاغتراب وعدم الحصول على وطن يماثل وطنه، يقول[1]:

آليت لا آتى بخارى بعدها ولو أنها فى الأرض دار خلود

فقد حللت بها حنيفا مسلما ورحلت عنها باعتقاد يهودى

– تنقله فى البلاد وشدة شوقه لوطنه جعله يعلن تعصبه لحب العرب ويحن إليهم ويهجو غيرهم من الأجناس الاخرى فاجتمع الحنين والهجو معاً.

– قد يجمع فى الهجاء رجالاً من البلاد التى نزل بها فى غربته فى أثر الحنين، وهجاء رجال من دمشق فيجمع هذا بذاك.

---

(١) الديوان ص: ٢١١.

صورة نفس ابن عنين بين الحنين والهجاء

تجلت صورة نفسه فى شعر الحنين والهجاء، حيث تكونت فيها ثنائية من طرفين الأول: الحزن والثانى: السخرية والفكاهة، ففى قصائد الحنين تجد التعبير الدقيق عن حالته النفسية الحزينة الكئيبة؛ حيث وجد الشاعر نفسه فى وطن غير وطنه وأرض غير أرضه، وبشر غير أهله وذويه ومحبيه، فعاش غربة مكانية ونفسية معاً، وما زال يعيش هكذا بوجدانه مع وطنه البعيد، فظل الحزن ظاهرة أصيلة غير مفتعلة، فشعر الحنين يعكس واقع نفسه الحزينة ويعد صرخة شاعر مغترب اكتوى بنار الغربة فلم ينسجم مع الأرض التى نفى إليها.

انظر إليه يخاطب صاحبيه بأن البعد لم يبق له دمعا، فقد نسى كل سرور وحبور، وحزنه دفين بين أضالعه يوقد قلبه ويغلى دماءه ويستنزف دمعه الذى لا يخفف عنه مصائبه بل يزيد من لهيبه وهمه، وزاد من ذلك أنه لم يجد معينا على ذلك. يقول من قصيدة يحن فيها إلى وطنه[1]:

خليلى إن البين أفنى مدامعى ... فهل لكما من عبرة أستعيرها

لقد أنيست نفسى المسرات بعدكم ... فإن عاد عيد الوصل عاد سرورها

على أن لى تحت الجوانح غلة ... إذا جادها دمع تلظى سعيرها

---

(١) الديوان ص: ١٦، ١٧.

وقاسمتماني أن تعينا على النوى إذا نزوات البين سار سؤورها[1]

ففيم تماديكم وقد جد جدها كما تريان واستمر مريرها

ويقول مبيناً أثر النفى على نفسه الحزينة[2]:

أضحى عن الأحوى المريع محلاً وأبيت عن ورد النمير منفرا

فقد صور نفسه بالإبل التى طردت ومنعت من الخصب والكلأ الأخضر، وما أنعمه من نبات تضرب خضرته إلى السواد والإبل فى حاجة وشوق إليه ، وصور نفسه بالذى شرد وفر من ورد الماء النمير الطاهر الكثير، فما أشقاه وأتعبه، فهو لا حيلة له فى ذلك، فقد منع من حقه فى العيش مثل تلك الأنعام التى أبعدت من الكلأ والماء فأشرفت على الهلاك والموت، وقد جمع بين زمنين، جمع طرفى يومه الذى يعيش فيه فى المنفى، زمن فى أوله وهو الضحى وهو فيه مسغب، وزمن فى آخره وهو زمن المبيت بلا رى أو سقى، فما أتعس الإنسان الذى يضحى وهو جائع ويبيت وهو ظمآن!

ومن شعره الذى يمثل صورة نفسه ويتجلى الصدق العاطفى فى الحزن فيه، قوله يتشوق إلى دياره ويتذكر أهل الحى وسكان ربعه يقول[3]:

ما قام لولا هواك المدنف الوصب يبكى الطلول وأهل المنحنى غيب

---

(١) السؤر: بقية الشىء اللسان جـ٣/ ١٩٠٥.
(٢) الديوان ص: ٨.
(٣) الديوان ص: ٤٥.

ويسأل الربع عن سكانه سفها وقد محت آيه الأروام تعتقب

يكفكف الدمع أحيانا وتبعثه لواعج الشوق أحيانا فينكسب

صب إذا نام أهل الحى أزعجه ذكر يعاوده من عيده طرب

تدعو هواجسه طيف الخيال وسل ـطان الكرى عنه بالأشواق محتجب

فانظر إلى هذا الرجل الطريد المتعب المضنى الذى أضناه غياب أهله عنه، والتعب النفسى أقسى على المرء من غيره، وقد ناب عنه الربع الذى سأل عنهم، لكنه لم يجد جوابا، بينما سيطرت على الشاعر حاله من الألم الذى كف عينيه عن النوم.

وقد كثرت فى الصورة عبارات وألفاظ الحزن مثل: المدنف، الوصب، غيب، محت آيه، يكفكف الدمع، لواعج الشوق، أزعجه ذكر يعاوده .... كذلك صاغ الشاعر الأبيات بطريقة ضمير الغائب (هو) المستتر الذى تكرر فى الأبيات أكثر من تسع مرات، وكأنه متكلم عن حالة غائبة، وما هذا الغياب إلا غياب ذات الشاعر عن دياره.

ويصور الوحدة النفسية القاتلة فالأيام قد أخذت تحد وترقق شفارها للقضاء عليه كأنه شاة تذبح، لكنه فر وأصبح طريداً لهذه الشفار التى تلحق به يقول[1]:

فما زالت الأيام تمهى شفارها وتشحذ حتى استأصلت كل ما عندى

فأقبلت أجتاب البلاد كأننى قذى حال دون النوم فى أعين الرمد

(١) الديوان ص: ٧٣.

وقد لا تكون هناك صلة بين اجتياب البلاد وسقوط القذى فى العين كما قال فى البيت الثانى، إذ يصور الشاعر نفسه فى نزوله تلك البلاد بالقذى الذى سقط فى عين رمداء، ولكن بالملاحظة تجد أن هناك رابط بينهما، فهو يصور نفسه فى مجيئه لهذه البلاد غريباً لا صلة بينه وبينها بالقذى الغريب عن العين فيمنعها النوم، ويمكن أن تكون العين معادلاً موضوعياً له، والقذى هو الاغتراب الذى يعيشه.

ومن الصور التى تعلن عن نفسه باطنيا وظاهرياً وهى أثر من أثر النفى والغربة، وتصور لك الإنسان وهو يبدو متمسكاً جلدا بينما تخفى حشاياه لهيبا وحرقة، وتستعر حناياه ضراما وشوقا، وبان فيها دور الجناس والتورية فى عملية هذا الكشف يقول[1]:

كم أورى عن لوعتى وأوارى ... ما أجنت أضالعى من أوارى

وأرى صاحبى سلوا وفى القلـ ... ـب زناد من قادم الشوق وارى

جلدا أظهر السرور وإن أضـ ... مرت حزنا بين الحشا متوارى

وكما انعكس فى شعر الحنين صورة نفسه وما بها من ألم وحزن وشوق ولهفة على وطنه وحبه لمرابع صباه، انعكس فى هجائه جانب آخر من نفسه وهو جانب المرح والسخرية والتهكم والعبث ويربط بين الاثنين فى الحنين والهجاء أن المشاعر الإنسانية تجمع بينهما فى وجدان الشاعر فتتوحد ظاهرة الفكاهة والسخرية مع الألم والحزن؛ لأن الأولى صدى للثانية وأثر من آثارها، فالفكاهة

(١) الديوان ص: ٧٤.

والسخرية وإن دلت على الحبور والسرور الذى هو ضد الحزن فإنها تدل على آلام دفينة فى نفس الشاعر وتهكم مر منه وإنكار لبعض ما لا يرضى عنه.

ففى هجاء قاض وقد اتهمه بالميل إلى النساء أثناء حكمه فى المنازعات، يتهكم بهذه الفئة الضالة ممن يحكمون بين الناس بينما يميلون إلى النساء فى أقوالهم وأفعالهم وأحكامهم مما لا يخفى على من يشاهدهم يقول مخاطبا الملك المعظم عيسى بن أيوب[1]:

قاضيك إن لم تقصه فاخصه أولا فلا يحكم بين النسا

ولا تخفى نفسيته الحانقة الساخرة من هذا القاضى الذى ينبغى أن يعف نفسه عن المقابح، وأن يكون مثالاً أخلاقياً لمن يحكم بينهم، ولا يخفى فى البيت الجناس المطبوع بين (تقصه) و(تخصه) الذى زاد المعنى ملاحة وحسنا وأثار الضحك والسخرية من المهجو.

وحينما نزل العراق مغتربا شاهد رجلاً يلقب بالجدى قام خطيبا فى الناس، وقد ادعى اللسن والبلاغة بينما هو عيى فى منطقه، فسخر منه ومن أهل العراق يقول[2]:

حوى قصب السبق أهل العراق وعطر ذكرهم الأنديه

وأى خطيب يجاريهم وقد خطبت فيهم الأجديه

---

(١) الديوان ص: ١٣١.

(٢) الديوان ص: ١٣٩، ١٤٠.

فالبيتان وإن اشتملا على هجو العراق صراحة، فلا ننسى أن الشاعر مفتقد لوطنه فى نقمة هذا الهجو، فشعوره الباطنى يملؤه الحزن والتبرم، فأين له مثل وطنه؟ وقد خرج بهجوه مخرج الاستهزاء بتلاعبه بالتورية الجيدة فى لفظه الأجدية فلها معنيان الأول: جمع للقب المهجو وهو (الجدى) والثانى: جمع جدى وهو ولد الماعز، لكنه جمع غير صحيح والصحيح أجد وجداء.

ومن هجوه الذى يحمل الفكاهة والسخرية قوله فى ابن دحية الكلبى الكاتب والنحوى[1]:

دحية لم يعقب فكم تنتمى إليه بالبهتان والإفك

ما صم عند الناس شىء سوى أنك من كلب بلا شك

فقد تلاعب باسم الرجل تلاعبا دقيقا وأصاب به المفصل فى سبه وشتمه، بادعائه حقيقة أن هذا الرجل لم ينجب دحية، فهو من كلب على الحقيقة، ولا إنكار فى ذلك فهو معروف بين الناس بابن الكلبى.

ويهجو أبا البركات بن عساكر الذى ولى نظارة الخزانة والأوقاف فى دمشق، ويبدو أنه كان يغض طرفه عما يحدث من فساد ونهب للأموال والوقف يقول[2]:

أبا البركات ما جعلت يقينا لك البركات إلا فى القرون

(١) الديوان ص: ٢٢٠.
(٢) الديوان ص: ٢٠١.

ولفظة (القرون) تستخدم فى أوساط العامة لمن يعــرف القــبح ويسكت عنه.

وهكذا نرى أن الفكاهة والسخرية كانت الجانب الآخر لنفســيته بجانب الحزن والألم، فقد انطلقت من عاطفة حزينة غاضبة، وكانــت وظيفتها التخلص من آلام الذات المبرحة الذى تسبب النفــى فيهــا، وكانت تخفيفا للعواطف الملتهبة بجانب ما أدته من لذع وإيــلام، لأن المقصود بها هو النقد والتجريح، وبذلك اجتمع فى نفسه جانبا الحزن والفكاهة.

ظواهر ثنائية فى الحنين والهجاء

توظيف التراث: استلهم ابن عنين بعض المواقف الشعرية التراثية بما تتضمنه من معان حاول صياغتها وتحويلها إلى مواقف تخدم فكرته فى الحنين والهجاء وقد قصد من ذلك إضافة دلالات جديدة أو اكتساب بعض الأخيلة فى الغرض الشعرى، ومن أمثلة ذلك فى الحنين قوله يتشوق إلى دمشق[١]:

وسرحتها فى ظل أحوى تدفقت ... بأرجائه الأمواه من كل مشرب

إذا ضاع رياه أذاعت طيوره الـ ... حديث فتغنى عن قيان ومشحب

لعزة دفر حين توقد نارها ... لديه ومتفال به أم جندب

الضمير فى: (سرحتها) يعود إلى الناقة المذكورة فى أبيات سابقة وقد تخيل بها رحلة إلى وطنه، والأحوى يقصد به رياضا أو روضا أو كلأ أحوى تمت خضرته، والدفر: "النتن، وامرأة دفراء أى منتنة"[٢] ومتفال: من "تفل الشىء تغيرت رائحته، والتفل: الريح الكريهة"[٣].

والشاعر يشير بالبيت الأخير إلى قول كثير عزة[٤]:

---

(١) الديوان ص: ٨٩.

(٢) اللسان جـ٣/ ١٣٩٣.

(٣) اللسان جـ ١/ ٤٢٦.

(٤) ديوان كثير عزة ص: ٥٨.

فما روضة بالحزن طيبة الثرى يمج الندى جثجاثها وعرارها

بأطيب من أردان عزة موهنا إذا أوقدت بالمندل الرطب نارها

وقول امرئ القيس[1]:

ألم تر أنى كلما جئت طارقا وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

فهو يبالغ فى وصف طيب تلك الرياض التى سوف يحل بها بعد عودته إلى دياره، وقد جعل هذه الرياض معادلا لمحبوبته وعوضا عنها فى قلبه، فهى مثل الزوجة أو المحبوبة التى تلقى زوجها أو محبوبها بعد غربة طويلة بطيب رائحتها، فهى أفضل عنده من عزة محبوبةكثير وأم جندب محبوبة امرئ القيس وقد اشتهرتا وعرفتا بطيب رائحتهما، فهذه الرياض هى محبوبته الأثيرة وزوجه الحنون، وربما كان مقصده أن عزة الطيبة الأردان تكون دفراء، وأم جندب الطيبة الرائحة تكون متفالاً بالإضافة إلى طيب ريا رياض دمشق – وطنه –

ومن توظيفه للتراث فى الهجاء قوله يهجو القاضى الشهرزورى[2]:

دخلت على ابن الشهرزورى ليلة وقد أغلقت دون الوزير المغالق

فعاينته ولهان يرطل فيشة وينشدها والخد بالدمع غارق[1]

---

(١) ديوان امرئ القيس ص: ٦٤.

(٢) الديوان ص: ١٩٧، ١٩٨.

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا سوى أن يقولوا إننى لك عاشق[٢]

نعم صدق الواشون أنت حبيبة إلى وإن لم تصف منك الخلائق

فالبيتان الأخيران لجميل بن معمر الشاعر الأموى، وهما فى الغزل وقد وظفهما الشاعر فى وخز هذا الرجل الذى صوره فى هذه الصورة التهكمية العنيفة على النفس، وكانت براعته فى الهجاء أن جعل عورة الرجل بدلاً من المحبوبة، فلم يحدث خللاً فى نقل البيتين من مكانهما الأصلى إلى الموقف الجديد ، وكان الإيلام أقسى إذا علم القارئ بأن المهجو الذى يفعل هذا الفعل هو وزير معنى بأمور الناس، فقد ترك الانشغال بمصالح المسلمين وانشغل بالمقابح والمساوئ.

ومن جيد توظيفه للتراث تضمين أشطر من معلقة امرئ القيس فى هجاء المؤيد بن القلانسى الوزير وكاتبه الجمال بن مهدى[٣]:

ولما رأينا المغربى بخدمة الـ مؤيد مثل الراهب المتبتل

وأخلق فيها عمره فكأنه قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

سألناه هل فى ظله لك مرتع وهل عند رسم دارس من معول

فقال أنا السدى إليه تفضلى وكم من يد لى عنده وتطول

---

(١) الوله: الحزن، وقيل ذهاب العقل والتحير لفقدان الحبيب، اللسان جـ ٦/ ٤٩١٩. يرطل: رطل راز الشىء ووزنه ليعلم كم وزنه. اللسان جـ ٣/ ١٦٦٥. الفيشة: الكمرة اللسان جـ ٥/ ٣٤٩٩.

(٢) ديوان جميل بثينة ص: ٨٦.

(٣) الديوان ص: ٢٣١، ٢٣٢ ويراجع معلقة امرئ القيس.

أسد إذا استدبرته منه فرجة بضاف فويق الأرض ليس بأعزل

وأشفى غليلا منه عز شفاؤه بمنجرد قيد الأوابد هيكل

فقد أجاد فى ربط كل شطر بما يوافقه من المعنى وكان لوذعياً ماكرا فى وجود العلاقة بين ما يقوله وما يضمنه.

توظيف التاريخ: ويوظف التاريخ فى شعر الحنين، فيعلل سبب خروجه من دمشق ونفيه، عدم قبوله الضيم، وهمة نفسه العالية يقول[1]:

كذلك ألقى ابن الأشج بنفسه ولم يرض عُمراً فى الإسار يطول

فهو يقرن نفسه بعبد الرحمن بن الأشعث فى محنته وفراره ويوظف قصته؛ فقصة ابن الأشعث وفتنته مشهورة وكان قد خرج على الحجاج بن يوسف وفرّ منه فلما أدركته جيوش الحجاج وهُزم، ألقى بنفسه من فوق قصر عال، فمات، واجتزوا رأسه وأرسلوها إلى الحجاج، ولم يرض بالتسليم والسجن[2].

فحاله مثل حال ابن الأشعث؛ فالنفى موت له مثل قتل ابن الأشعث، وهو محبب على العيش فى ظل الذل والإسار.

---

(١) الديوان ص: ٧١.

(٢) ينظر البداية والنهاية لابن كثير جـ ٩/ ٢١٠ وسير أعلام النبلاء جـ ٤/ ١٢٩.

ويأتى بقصة عمران بن حطان ويوظفها فى الحنين إلى وطنه فيقول[1]:

أشبهتُ عمراناً وأشبه كل من جاورتُ منزله فتى زنباع

فهو يشبه نفسه بعمران بن حطان فى طول غربته واضطرابه فى الأقطار، خوفا من الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف، وكان عمران من رؤوس الخوارج أهدر دمه، ووضُعت عليه العيون، وكان الحجاج يطلبه، ففر وهرب منه[2].

ويشبه غيره فى طول إقامته ونعمته واستقراره بروح بن زنباع الذى كان جليسا مقيما لا يتقدم عليه أحد عند عبد الملك بن مروان، وكان عنده كالوزير لا يكاد يفارقه يتمتع بطيب الإقامة ونعمة الجوار[3].

ويوظف التاريخ فى الهجاء، فيأتى بالخبر التاريخى ليكون حجة على ما يذهب إليه، يقول فى هجو رجل اسمه سليمان[4]:

إذا المرء لم يشرف بنفس كريمة وأصل فما تعلو بجاه مراتبه

فما زاد قدر القرد حين استخصه يزيد ولاحط الحسين مصابيه

(١) الديوان ص: ٢٦.
(٢) يراجع وفيات الأعيان جـ٤/ ٩٤، ٩٥، وسير أعلام النبلاء جـ ٤/ ١٥١.
(٣) ينظر البداية والنهاية جـ ٩/ ١٢٥ وسير أعلام النبلاء جـ ٤/ ٧٨.
(٤) الديوان ص: ٢٣٤.

فهذا الرجل المهجو مهما علت به المراتب، وأصبح فى منزلة عالية فهو وضيع خسيس؛ لأنه لا يملك نفسا شريفة، والإباء إباء النفس لا إباء الجاه والمكانة، ويدلل على هذا بقصة تاريخية فقد كان ليزيد بن معاوية – كما ذكر فى أنساب الأشراف للبلاذرى[1] – قرد يجعله بين يديه ويكنيه أبا قيس، ويقول: هذا شيخ من بنى اسرائيل أصاب خطيئة، فمسخ، وكان يسقيه النبيذ، ويضحك مما يصنع، وكان يحمله على أتان وحشية ويرسلها مع الخيل فيسبقها.

ومع ذلك فهو قرد ممسوخ لا تتغير طبيعته القذرة بنيله هذه المكانة عند يزيد، إذاً لا يتحقق جاه الإنسان ولا تعلو به المراتب إلا نفسه وأصله وعمله، والأمر لو خلاف ذلك لعلت منزلة هذا القرد ولزاد قدره لا سيما وإن الخليفة كان يستخصه. لكن هيهات.

والشاعر يمزج هجوه للرجل فى الخبر التاريخى عن طريق التشبيه الضمنى، أى هذا مثل ذاك، فهذا الرجل يشبه ذلك القرد، وهو بذلك يضع الصورة الأولى تماثل الصورة الأخرى التاريخية بلا وسائط، فيفهم المراد من سياق التصوير.

الحكمة: المتأمل لموضوعى الحنين والهجاء: يجد أن ابن عنين قد ضمنهما بعض الحكم التى استقاها من قراءاته وتجربته، وقد جاءت الحكمة فيهما معبرة عن فكرته التى يرمى إليها، ومناسبة

---

(١) جـ٥/ ٣٠٠.

لمقامه، فإذا نظرنا إلى الحنين نجد هذه الحكمة التى وردت فى سياق حنينه إلى دمشق يقول[1]:

وكم قائل فى الأرض للحر مذهب إذا جار دهر واستحال ملول

فقوله: "فى الأرض للحر مذهب" حكمة صاغها عن طريق تقديم الجار والمجرور، ليفيد أن النفى الذى تعرض له ليس قاصراً عليه وحده، بل هو سبيل كل الأحرار الشرفاء مثله، وهى حكمة توافق موضوع الحنين والغربة، فهو يحاول أن يسلى نفسه بالبعد عن دياره بهذه الحكمة التى تستدعيها اللحظة التى يعيش فيها، وفى نفس الوقت تدل على صدق عاطفته وشوقه إلى بلده، وهو يقرر مبدأ أن الذهاب والضرب فى الأرض مقصور على الأحرار فلا عيب فى نفيه.

ومن حكمه التى يدعم بها حنينه قوله[2]:

تعاف الورود الحائمات مع القذى وللقيظ فى أكبادهن صليل

فتعاف من عفا أى تركت وتجاوزت إلى غيره مع حاجتها إليه والورود: إتيان الماء كما هو معروف، الحائمات: الحوم: القطيع الضخم من الإبل أكثره إلى الألف، أو الإبل الكثيرة من غير أن يحد عددها[3]. والقذى: ما علا الشراب من شىء يسقط فيه أو ما يسقط

(١) الديوان ص: ٧٠.
(٢) الديوان ص: ٧١.
(٣) اللسان جـ٢/ ١٠٦١.

فى الشراب من ذباب أو ما يلجأ إلى نواحى الإناء فيتعلق به[1] والقيظ: صميم الصيف أو حمارة الصيف وشدة حره[2]. والصليل: صوت يسمع لأجواف الإبل من شدة العطش، أو يبست من العطش فسمعت لها صوت عند الشراب كالبحة[3]. فهذه الحكمة قد أتى بها من عالم الكائنات الحية يصور بها تقاتل الإبل فى البيد من أجل البحث عن قطرة ماء وقد وصلت إلى أبلغ درجات الظمأ وأشرفت على الهلاك، فهى تدور دوراناً شديداً من شدة العطش وبحت أصواتها ليبس أجوافها ومع كل ذلك فهى تترك الماء الذى كدر بالقذى ولو كان قليلاً؛ لعزة نفسها وإبائها أن تشرب طينا مع حاجتها للشرب؛ لأنها إبل كريمة أصيلة، وسياق هذه الحكمة فى قصيدة الحنين له انعكاسه على وجدان الشاعر فهو يؤكد بها وجهة نظره فى أنه نفى عن وطنه لكبريائه ونفسه العالية، فهو يأبى كدر العيش ولو كان قليلاً.

ومن حكمه التى جاءت ممتزجة فى أبيات الحنين قوله[4]:

فإن الفتى يلقى المنايا مكرما ويكره طول العمر وهو ذليل

فقد جاء بها دليلا على أن النفى – مع أنه موت لنفسه – وهو مكرم خير له فى طول الحياة وهو ذليل.

---

(١) اللسان جـ٥/ ٣٥٦٢.
(٢) اللسان جـ٥/ ٣٧٩٥، ٣٧٩٦.
(٣) اللسان جـ٤/ ٢٤٨٦.
(٤) الديوان ص: ٧١.

وإذا نظرنا إلى باب الهجاء نجده يستخدم الحكمة التى تقوم مقام المثل؛ لتكون دليلاً على ما جاء به من هجو وسب، فقد هجا رجلا يدعى سليمان وذكر صفاته الذميمة، فهو ليس بجواد لا يهزه الندى، ضيق اليد والنفس، لا يلبس لبس الكرام، وهو مخادع بخيل لا خير فيه البتة، ثم جاء عقب هذه الرذائل بحكمتين يقول[1]:

فما ترجو بميت تخاطبه

.....

قد يظلم التيس حالبه

فهذا الرجل بمنزلة الميت، فيطلب الشاعر من طالبى الندى عنده إلا يطرقوا بابه، لأنه ميت، والمكفن مهما ناديته فإنه لا يجيب نداء، وهذا أمر مسلم به لا إنكار فيه، وفى الحكمة تأثر واضح بقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾[2].

وفى الحكمة الثانية: يقول يا من تبتغى معروفا من هذا الرجل الأحمق، فإنك ترجع من عنده خائبا حسيرا فارغ اليدين، لأنك وضعت الشىء فى غير موضعه، ومثلك مثل من يذهب إلى التيس ليحلبه، ومن بديهيات الأمور أن الحلب واللبن لا يطلب من ذكر التيس، بل إن ابتغاء الحليب منه إمعان فى الظلم وقلب لطبيعة الأشياء، والحكمة

(١) الديوان ص: ٢٣٤.
(٢) سورة النمل آية: ٨٠.

فيها إيحاء خفى بتمثيل وتصوير هذا المهجو بذكر الماعز – التيس – تقبيحاً وسخرية؛ فهو قد خرج عن عالم الإنسانية ليلحق بعالم الحيوانات.

كذلك احتوت الكثير من قصائد الهجاء على الحكمة التى تدعم نظريته، وتجعل الأمر مقرراً من ذهن السامع، كقوله فى هجاء طبيب اسمه موفق الدين الذى كان له غلام حسن الصورة يصحبه، وقد اتهم به، فهو يسلم لهذا الطبيب اهتداءه إلى العلم وسديد آرائه الطبية، لكنه يتخذ هذه الآراء سترا على صلته بغلامه، وتضليلا للناس عما يفعله به، فهو يفعل به الأفاعيل الفاضحة جهاراً، ويخفيها ستراً بآرائه وأقواله، يقول[1]:

وما ذاك إلا ستر على عمر ... رب انتهاك خير من الستر

ففى الهجاء تتردد الحكم كما فى الحنين؛ لتكون عونا على تأكيد المعنى وتثبيتاً للفكرة.

المبالغة: كان ابن عنين يخرج فى باب الحنين وباب الهجاء إلى المبالغات، حيث يسرف فى المعانى، ويفرط فى الصفات ويخرج بها عن حدها المعقول، ومبالغاته فى الحنين تدل على حبه لوطنه وحزنه على فراقه، فهو يفضل دمشق وأحياءها على المنازل المقدسة فى مكة، وهذا مبالغة منه، فوطنه مهما يُكِن له من حب وإيثار فى قلبه

(١) الديوان ص: ١٩٤.

لا يبلغ فى الحقيقة قدسية الديار التى تهفو إليهـا أفئـدة المسـلمين وتغنى بحبها كثير من الشعراء يقول[1]:

فسقى دمشق ووادييها والحمى متواصل الإرعاد منفصم العرى

وأعـاد أيامـا مضـين حميـدة ما بـين حـرة عـالقين وعشـترا

تلـك المنـازل لا أعقـة عـالج ورمـال كاظمـة ولا وادى القـرى

فهو يطلب لوطنه السقيا ونزول الأمطار بلا أذى أو شدة بـرد، ويتمنى رجوع زكرياته الماضية فى هذه الأمـاكن بعـد أن تخصـب بالمطر والعشب الوفير فى حرة عالقين وعشترا، وهمـا مـن قـرى دمشق، ثم يذكر أن هذه المنازل المحبوبة لديه تبلـغ فـى إعزازهـا وحبها مبلغا لا تبلغه عنده تلك الديار المقدسة المعروفة.

ويبالغ فى الهجاء مبالغة تصل إلى التشفى من المهجـو الـذى يقيم فى وطنه الذى حرم منه، وقد وصـل إلـى حـدود المبالغـات والتهويل والفحش فى الموضوع والتصوير، واتباع أقصـى أنـواع المبالغة بغرض الدفاع عن النفس، وقد أخرجته إلى القـذف العلنـى والسب الصريح، فهو يتهكم من القاضى الفاضل، وكان به حدبة فـى ظهره، والحدبة: خروج فى الظهر ودخول البطن والصدر[2]. فـادعى أنها حبل مثل حبل المرأة ذات الجنين فى بطنها، وقـد تقَّـول بهـذا

(١) الديوان ص: ٤.
(٢) اللسان جـ٢/ ٧٩٤.

الطغام والسوقة من العامة وادعوا أن هذا الحبل من عبيده الذين يفعلون به الفاحشة يقول:

حاشا لعبد الرحيم سيدنا الـ ... فاضل مما تقوله السفل

وتبَّ من قال إن حدبته ... في ظهره من عبيده حبل

وانظر هذه الأشياء التى قوى بها المبالغة مثل التشهير بالمهجو وفضيحته فى قوله: "تقوله السفل" وأن الأمر قد انكشف للناس مثل حال الحبلى من النساء التى يشاهد هيئتها الناس ولا ينكرون صورتها، والبيت الثانى خرج به مخرج التشكيك والارتياب من هذا الأمر وأنه ما زال مثار حيرة وشك.

والرابط بين المبالغتين فى الحنين والهجاء هو وصول الشاعر إلى حد الكذب فيهما، لكنه مغتفر له؛ لأنه نبع من معاناته وإحساسه بوطنه وغضبه من خصومه، وهذه المبالغات وإن كانت مرفوضة إلا أنها عوضت الشاعر الكثير، ورفعت من معنوياته وشحذت همته[1].

البديع: فهو يستعين ببعض الألوان البديعية التى تكون وسيلة لتوضيح المعنى فى الحنين والهجاء، يقول فى الحنين مبيناً الأثر النفسى عليه من طول الغربة[2].

لو يخلى القطا لنام ولو خلـ ... ـيت لم أرم عن وجارى وجارى

---

(١) الديوان ص: ١٨٩.
(٢) الديوان ص: ٧٦.

فقد جانس جناساً بليغا بين (وجارى) و(جارى) الأولى بمعنى الكهف أو جحر الوحش من ضبع وكلب وأسد[1]. والثانية الجار المعروف، فالشاعر يريد أن يقارن بينه وبين القطا، وإنما ذكر القطا لشدة فزعه، فلو ترك القطا لنام دعة وأمنا، أما هو فلو انفرد وحده خالياً لم ينم، وبات فى الهم واليأس والتفكير، ولم يبرح بيته ولزوم جاره، وانظر إلى تعبيره عن داره بالجناس فى قوله (وجارى) وهو جحر الضبع، ليدلل على حاجته إلى الأمن الشديد لشدة خوفه، كما تلزم الضباع جحورها ولا تخرج منها إلا لجوعها وطلبها الطعام، أما اللفظة الثانية (جارى) فعبر بها عن حاجته للعون والنصرة لضعفه وبؤسه.

ومن الجناس الذى يدل على شدة تعلقه بوطنه وحبه له[2]:

سألثم إن وافيتها ذلك الثرى وهيهات حالت دون ذاك حؤول

فالجناس بين (حالت) و (حؤول) الأولى بمعنى حجزت ومنعت والثانية المراد بها جمع حول وهى السنة بأسرها[3]. وقد أدى الجناس إلى تقويه معنى عدم تغير عاطفة الشاعر نحو وطنه ولو طالت السنون وتعددت الأسباب ومنعت الموانع منه. وزاد من جمال هذا الجناس وجود علاقة بين الكلمتين ألا ترى أنك تقول دار محيلة

(١) اللسان جـ٦/ ٤٧٧١.
(٢) الديوان ص: ٧١.
(٣) اللسان جـ٢/ ١٠٥٥.

أى تغيب عنها أهلها منذ حول، والحول من معناه الانقلاب من حال إلى حال من الإقامة إلى الغربة ونحو ذلك.

ومن الطباق الذى يدل على عدم الاستقرار فى بلد واحد قوله[1]:

غريب إذا ما حلَّ مصراً أبى له وشيك النوى إلا ارتحالاً إلى مصر

فبين (حل) و(ارتحالا) طباق بالإضافة إلى المجانسة فى الحروف ويقول[2]:

أجدك ما تزال بك الرواحل تنقل فى الهواجر والهواجل

إذا أمسيت فى بلد غريب تروم إقامة أصبحت راحل

فبين (الهواجر) و(الهواجل) جناس الأولى جمع هاجرة وهى نصف النهار وقت القيظ، والثانية جمع هوجل وهى المفازة البعيدة. وبين (أمسيت) و(أصبحت) وبين (إقامة) و(راحل) طباق دل على طول تشتته فى القفاز خاصة فى وقت الحر، وأنه لا يستريح.

ومن لطيف الجناس المطبوع فى الهجاء قوله يهجو ابن عساكر[3]:

يا ابن العساكر إن صم انتسابك ذا فأنت من أمم صورت مسبوكا

---

(١) الديوان ص: ٢٩.
(٢) الديوان ص: ١١٧.
(٣) الديوان ص: ٢٠١.

يا ابن الدجاجة كل الناس كان لها ديكا فأنت ابن من حتى أناديكا

فقد جانس بين (ديكا) وهو الطائر المعروف و(أناديكا) أى أكلمك وأخاطبك، وكل كلمة من واد غير واد الأخرى، الأولى من عالم الطير والأخرى فعل، مما حسن ولطف التجنيس، بل انظر إلى تكرار حرف الكاف أكثر من ست مرات وصداه الذى يغمز المهجو؛ لأنه من حروف اسمه.

ومن جناسه الذى يبين قدرته على التوليد والاشتقاق قوله يهجو القاضى الحرستانى[1]:

تبا لحكمك لا حُرستا هل أنت إلا من حرستا

بلدة تجمع من حر واست فصار إذن حرستا

فبين: (لا حُرستا) بمعنى الحراسة والصون و(حرستا) اسم بلدة جناس وبين (حر واست) و(حرستا) جناس أيضا.

ومن الطباق فى الهجاء الذى استعان به فى أداء المعنى قوله يهجو خطيب المسجد الأموى الذى ادعى أن النبى - ﷺ- أتاه فى المنام ولثم خاتما فى يده[2]:

لا تظن الجوزى يصدق فى الرؤ يا فما الأمر مثل ما يدعيه

---

(١) الديوان ص: ١٨٥.
(٢) الديوان ص: ٢٢٧.

كيف يرضى النبى يلثم منه خاتما تبصق البرية فيه

فابن عنين يسخر من ذلك الادعاء، وينعى على بعض من يقترفون من أقوال وأفعال كى يستميلوا قلوب العامة، وقد أقام الحجة على سخريته وإنكاره لهذا القول بالطباق المعنوى بين يلثم ويبصق.

التورية: ويستخدم التورية فى الحنين فيقول[1]:

لقد طال عهدى بالمصلى فليتنى رأيت المصلى أو سمعت له خبر

فقد بعث إليه أخوه بسجادة مع تاجر وهو بالمنفى فأنشد مقطوعة منها هذا البيت متذكراً (المصلى) وهو مكان بدمشق، فلفظة (المصلى) معناها سجادة الصلاة وقد ورى بها عن مكان بوطنه، والتورية هنا تكشف عن مدى حنينه وتعلق قلبه ببلاده.

ومن توریاته فى شعر الهجاء قوله يهجو رجلين أحدهما يدعى شمس الدين والثانى نجم الدين[2]:

تجوَّع لى الشيخ الزكى وجاءنى مع الشمس قبل الشمس يتلوهما النجم

وأقبل شمس الدين يسعى مبادراً وفى كمه للنهب من أدم كم

فلفظه (الشمس) الأولى فى الشطر الثانى تشير إلى معنيين الشمس الكونية المعروفة، وهذا الرجل الذى يسمى شمسا وقد أورى بها عنه، كذلك لفظة (النجم) تشير إلى الكوكب وورى بها عن رجل

(١) الديوان ص: ٨٢.
(٢) الديوان ص: ١٢٨، ١٢٩.

يدعى نجم الدين. وكلمة (كم) تدل على كُم القميص وورى بها عن الشىء المستور المخبئ المنهوب الذى سرقه شمس الدين.

ومن مليح التورية فى الهجاء قوله يهجو صاحب حماة وأميرها وقد ورى بكلمة حماة عن حماته[1]:

أشكو إلى الله حماتى فما يعلم ما لاقيت منها سواه

والله ما أفلم ما عُمرت قل لى متى أفلم صاحب حماه

فصاحب حماه فى البيت الثانى فيها تورية عن والى حماة ورئيسها، وصاحب الحماة وهو الرجل المتزوج. ولا يخفى ما فى البيت من تأنيب بأن هذا المهجو يستمد قوته وآراءه وعقله من امرأة معروف منها الكيد لزوج ابنتها.

اللون المحلى واستخدام العامى: وتتضح فى حنينه وهجائه الكلمات التى تدل على اللون المحلى للبيئة واستخدام الكلمات العامية يقول فى الحنين[2]:

لا الحاكم المصرى ينفذ حكمه فيها علىَّ ولا العوانى الموصلى

فهو يشير إلى عدم نفاذ أحكام قاضى دمشق عليه، ولا عامل الوالى العوانى الموصلى.، والحاكم المصرى يقصد به قاضى قضاة

(١) الديوان ص: ١٣٣.
(٢) الديوان ص: ٨٥.

دمشق جمال الدين يونس المصرى، وبالموصلى. إبراهيم بن موسى من عمال دمشق الذين يديرون بعض أمورها[١].

فلفظة "عوانى" كلمة محلية عامية ينبز بها أهل دمشق من لا يؤمن شره من أعوان الحكومة[٢].

وفى الهجاء يقول[٣]:

أما الملق كما علمت فنسكه نصب على زبدية ورغيف

فالملق رجل صوفى من خواص الملك المعظم عيسى بن أيوب كان يدعى الزهد وأنه يقيم حياته على اليسير فى الطعام، وكلمة "نصب" محلية عامية بمعنى نصاب أى محتال، والناس فى كثير من البلاد العربية ما زالوا يستخدمونها إلى الآن.

ويقول فى هجاء إمام المسجد الأموى[٤]:

كسد العلق فى دمشق فأضحى يستميل القلوب بالتمويه

فهذا الواعظ يستخدم أفعال المشعوذين فيموه على الناس ويلبس عليهم ويزين لهم الباطل فى ثوب الحق، ولذلك كسدت بضاعته وخاب وعظه.

---

(١) الديوان ص: ٨٥.
(٢) الديوان ص: ٨٥.
(٣) الديوان ص: ١٤٧.
(٤) الديوان ص: ٢٢٧.

وقد أتى بكلمة "العلق" واستخدمها استخداماً عامياً وهى تدل فى أوساط الناس والعامة إلى الآن على فاسد الأخلاق الخبيث.

ومن استخدام العامى قول يهجو الوزير ابن شكر[1]:

ضاع شعرى وقلَّ فى الناس قدرى من وقوفى بباب اللئيم ابن شكر

لو أتته حوالة بحراه قال سدوا بلحيتى باب جحرى

فهو يذكر عدم اهتمام ذلك الوزير به، فقد أطال الوقوف ببابه، وعلة هذا لؤمه ومكره، ويدل على هذا اللؤم بأنه لو جاء إليه غريم فى ساحة داره يطلب دينه سوف يحتال عليه إلى الحد الذى يتحول فيه إلى جرذ حقير يدخل جحره ويسده، لكنه إنسان، فيكفيه أن يسده بلحيته الطويلة، فقوله: (سدوا .... باب) عامى دارج على ألسنة العامة، والبيت الأول لا يخفى سذاجته وأنه أقرب إلى النثر ولغة التخاطب.

ويلاحظ قله هذه الألوان فى الحنين وشيوعها فى الهجاء؛ لأن الهجاء ربما يحتاج فيه الشاعر إلى بعض ما يجرى على ألسنة العامة من قذف أو سباب.

استخدام مصطلحات العلوم: فهو يقول فى الحنين مخاطبا نفسه[2]:

---

(١) الديوان ص: ٢٤١.
(٢) الديوان ص: ١١٧.

أجدك ما تزال بك الرواحل تنقل فى الهواجر والهواجل[1]

إذا أمسيت فى بلد غريبا تروم إقامة أصبحت راحل

كأنك فى الزمان اسم صحيح جرى فتحكمت فيه العوامل

مزيد فى بنيه كواو عمرو وملغى الحكم فيه كراء واصل

وحقك أن يلازمك ارتفاع لأنك للندى والجود فاعل

فقد ذكر مصطلحات نحوية مثل: "اسم" "صحيح" "تحكمت فيه العوامل" "مزيد" "واو عمرو" "ملغى الحكم" "فاعل".

ووظف هذه المصطلحات فى المضمون حيث صوَّر نفسه بالاسم الصحيح الذى تتحكم فيه عوامل الرفع والنصب والجر، فهو كذلك تجرى به الأمور والأقدار أنى تشاء تارة علواً وتارة خفضا وذلاً، وهو فضلة فى الحياة لا فائدة من وجوده سوى وجوده شكلا وحطاماً فقط كواو عمرو الزائدة لفظا لا نطقا، ولا يؤخذ برأيه ولا يستشار، ملغى فكره وحكمه مثل راء واصل، يقصد حرف الراء الذى كان يتجنبه واصل بن عطاء للثغته.

---

(١) **الهواجر**: جمع هاجرة وهى نصف النهار عند اشتداد الحر. اللسان جـ٦/ ٤٦١٩. والهواجل: المفازة البعيدة التى ليست بها أعلام أو المفازة الذاهبة فى سيرها. اللسان جـ٦/ ٤٦٢٢.

ويتشوق إلى العودة لوطنه، وهو فى تلك الرحلة مع أصحابه فى الصحراء، فيذكر إجهاد الإبل فى المسير[1]:

متى أنا فى ركب يؤم بنا الحمى خفاف ثقال بالأمانى ظهورها

حروف بأفعال لهن نواصب إذا آنست خفضا فرفع مسيرها

فقد استخدم مصطلحات النحو مثل: الحروف، والنواصب، والأفعال، والرفع، والخفض.

فهو يذكر أن النوق التى سارت فى الصحراء قد أصبحت ضامرة هزيلة من شدة العناء والتعب والمسير وما تلاقيه من هول المفازة وهى فى ذلك تشبه الحروف الكتابية لدقتها وهزالها، كلما اهتدت هذه الإبل إلى طريق سهل فوجئت بالحزن المرتفع.

وقديما صور الشاعر العربى ناقته بحرف الكتابة، لكنه كان أحسن طبعا وأرق أريحية، ولم يبد عليه أنه استخدمه صناعة كما فعل ابن عنين، انظر إلى كعب بن زهير فى قوله[2]:

حرف أخوها أبوها من مهجنة وعمها خالها قوداء شملیل

فقد صور الناقة بحرف المعجم لضمورها وقلتها.

ويستخدم هذه المصطلحات أيضا فى الهجاء، فيقول فى عزل "المؤيد" وهو من رجال الدولة الأيوبية[1]:

---

(١) الديوان ص: ١٧.

(٢) شرح ديوان كعب بن زهير ص: ١١.

تشكى المؤيد من صرفه وذم الزمان وأبدى السفه

فقلت له لا تذم الزمان فتظلم أيامه المنصفه

ولا تغضبن إذا ما صرفت فلا عدل فيك ولا معرفه

فقد استخدم مصطلحاً نحويا وهو الممنوع من الصرف الذى يمنع الاسم من الصرف لعلة عدم تحقيق العلمية والعدل، فهذا الرجل قد عُزل من عمله بسبب ذلك.

وقد أضاف الشاعر من موهبته وسجيته على الأبيات ما خفف من وطأة استخدامه للصناعة النحوية؛ فالهاء الساكنة التى تنتهى بها الأبيات توحى بجمالها الصوتى وهو سكون المهجو ووقفه وعدم تحركه وصمت الموقف بالنسبة له.

كذلك يوحى تعبير "فلا عدل" أن المهجو جائر ظالم لا يعدل فى حكمه وعمله بين الرعية، وتعبير "ولا معرفة" أى أنه نكرة أمعة مجهول الذكر والنسب، وهذه براعة انسجمت مع الطبع الشاعرى؛ فرجال الدولة الأكفاء لابد أن يتحقق فيه الإنصاف والعدل والشهرة والمعرفة بين الناس.

ويقول فى هجاء ابن مازة الفقيه الحنفى مشيراً إلى شحه وبخله[٢]:

---

(١) الديوان ص: ٢٢٩.

(٢) الديوان ص: ٢٢١.

مالُ ابـن مـازة دونـه لعفاتـه خـرط القتـاد أو منـال الفرقـد

مـالٌ لـزوم الجمـع يمنـع صـرفه فى راحة مثل المنـادى المفـرد

ففى البيت الأول أشار إلى المثل العربى "دون ذلك خرط القتـاد" [1] يضرب للأمر دونه مانع، والخرط: قشرك الورق عـن الشـجرة اجتذابا بكفك[2]. والقتاد: شجر له شوك أمثال الإبر[3].

فقد صور حال طالبى ماله والمعروف لديه بحال مـن يحـاول المستحيل، على أن ماله هو هذا المستحيل، فهو كلحاء شجر القتـاد ذى الشوك لمن يريد أن يخرطه بأظافره، أو كنيل الفرقد لمن يتمنـى الحصول عليه.

وفى البيت الثانى استخدم الشـاعر مصـطلح صـيغة منتهـى الجموع التى تمنع الاسم من الصرف، ومصـطلح المنـادى المفـرد المبنى على الضم، وتفسير ذلك أن الشاعر وظف المصطلح الأول فى الهجاء بأن مال هذا الرجل يلزم الجمع البتة فلا ينفق ولا يصرف منه شيئا، والمصطلح الثانى وظفه بأن ماله مضموم مقبوض دائمـاً فـى راحته لا ينفك أبداً فلا يعطى منه إنسانا.

---

(١) مجمع الأمثال جـ١/ ٤٦٧.
(٢) اللسان جـ٢/ ١١٣٤.
(٣) اللسان جـ٥/ ٣٥٢٥.

الثنائية الفنية فى شعر الحنين والهجاء

عند ابن عنين

– فى شعر الحنين قربنا ابن عنين من المثل الأعلى الذى نرنو إليه فى مخاطبة النفس وقت غربتها، وجعلنا ننزع إلى الكمال المنشود فى حب الأوطان، فقد صور الخير المحض فى حب تراب الوطن ودعا إليه، بينما فى شعر الهجاء صور الشر الخالص الذى ندعو إلى هجرانه والاشمئزاز منه، فقد جنح إلى تصوير الخير والشر معاً وجعلهما يتنازعان فى شعره، فهو يناصر الخير ويفوز به فى الحنين ويغلب الشر الخبيث فى هجوه، وقد جمع بين الأمرين أن جعلهما يخاطبان عاطفة القارئ.

– وفرق شاسع بين قول الحنين والشوق إلى الأوطان، وقول الهجاء، فهما طرفا نقيض، لكن ابن عنين جمع بينهما وشكل منهما ثنائية، فبينما تراه يقول من الشعر ما يرقق قلبك تراه يقول شعراً تخجل منه الرجال، وقد كانت شخصيته الفنية وطبيعته الإنسانية قابله للجمع بين ذلك، يجمع مجال القول فى الفحش، واصطناع القول الذى يتشوق به إلى بلاده وساعده على ذلك طبيعة المجتمع الأيوبى الذى عاش فيه، فقد كان مجتمعا يجمع الكثير من المتناقضات خاصة دمشق التى جمعت أجناساً شتى من عرب وروم وصليبين فى هذا العصر، وكانت بعض القيم تتباين وتتفاوت بين الناس هناك، قيم الحب والبغض والأمانة والخيانة والأنانية والتضحية وكانت علامات

الفضيله تنحسر وتضيع عند بعض هؤلاء خاصة من تــولى شــئون البلاد كالوزراء والقضاة.

– الثنائية الفنية هنا تجمع بين طرفين الأول: صــورة صــادقة لنفسه، وهى صورة فيها الكثير من النفاسة والقيم فى حب الأوطــان والشوق إلى ترابها وعدم الرضا بغيرها بديلا، وفيها عرض لصروف الزمان وأحداث الحياة وشكوى الأيام، والثــانى، صــورة المجتمــع مجتمع دمشق وما به من قيم متفككة، وعلاقة الناس بعضهم ببعض، فقد جمعت دمشق العديد من الوعاظ والمفكرين والعلماء والــوزراء الذين سلكوا بعضا من السلوك الذى لا يعجب ابن عنين بينما الدولــة الإسلامية تواجه حربا صليبية ضروساً وقد حــاول أن يــربط بــين الحنين والهجاء فى هذه الشكوى شــكوى الزمــان والســخط عليــه وشكوى البشر والسخط عليهم.

– وتتشكل هذه الثنائية واضحة بلا خفاء على القارئ فى أغلب شعره حتى أن القارئ يكاد لا يرى فى شعره سوى هذه الثنائية انظر إلى قوله(١):

هجــوت الأكــابر فــى جلــق ورعت الرفيع بهجو الوضيع

وأخرجــت منهــا ولكننــى سأدخلها رغم أنف الجميع

فليس فى حنجرة الشاعر إلا الهجو والحنين ينشــدهما لنفســه وللآخرين.

---

(١) الديوان ص: ٩٤.

وانظر إلى تعانق الحنين والهجاء الخفى فهو يحن إلى وطنه ويغمز أهله بالهجاء حتى تكاد لا ترى الهجاء بينما هو مطوى فى حنايا قوله، يقول[1]:

رعى الله قوما فى دمشق أعزة ... علىَّ وإن لم يحفظوا عهد من ظعن

أحبة قلبى فى الدنو وفى النوى ... وأقصى أمانى النفس فى السر والعلن

أناساً أعد الغدر منهم بذمتى ... وفاء وألقى كل ما ساءنى حسن

وكم فوقوا نحوى سهاما على النوى ... فأصمت فؤادى واعتددت بها من ظن

وخير ما يمثل هذه الثنائية قصيدته (مقراض الأعراض) التى تضع يد القارئ على هذه الثنائية وتقوم عليها دليلا لا مراء فيه يقول منها[2]:

شوقا إلى ساكنى دمشق ... فلا عدت رباها مواطر السحب

متى أرى سيدى الموفق يختا ... ل ضحى فى عراصها الرحب

يمشى الهوينى وخلفه عمر ... يختال مثل المهاة فى السرب

والعسقلانى فى عمامته ... دلائل عن سخافة وتنبى

يخادع الله فى الزكاة بألـ ... ـفاظ محال لم تأت فى الكتب

ذو طرفين إذا نسبتهما ... بحار فى ذاك كل ذى لب

---

(١) الديوان ص: ٧٧.

(٢) الديوان ص: ١٧٩، ١٨٤.

فهل بعد ذلك إنكار لهذه الثنائية التى عمد إليها الشاعر عمـــداً، وذهب يبنى عليها شعره.

– وقد جمعت بين الثنائية عاطفة الشاعر، فالحنين نشـــأ مـــن الغضب لترك الشاعر لوطنه، والهجاء نشأ من الغضب أيضـــا علـــى المهجو والحنق عليه، فالجامع بين الغرضين الغضـــب، لكنـــه فـــى الحنين غضب بناء يبنى مشاعر جياشة ويحيـــي مشـــاعر ووجـــدان الشاعر، وفى الهجاء غضب هدام يهـــدم القـــيم والأخـــلاق ويبـــرز المساوئ والرذائل. ويقول ابن رشيق "قواعد الشعر أربع: الرغبـــة، والرهبة، والطرب والغضب." [(١)] فنجد أن عاطفـــة الحنـــين دافعهـــا الرغبة فى العودة إلى الوطن وعاطفة الهجاء دافعهـــا الغضـــب مـــن هؤلاء الذين هجاهم، وقد تشتد عاطفته فى تذكر وطنه وهجو بعـــض الأشخاص، وقد تهدأ وقد اجتمع فى عاطفته فـــى الحنـــين والهجـــاء مشاعر الحزن والألم والحب والكره والأمل فى العودة لوطنه وخلـــوه من هؤلاء المهجويين.

– اجتمع فى الحنين والهجو سمة الانفعالية المحفزة للشـــاعر، ولعل تأثير ابن قتيبة بقوله: "وللشـــعر دواع تحـــث البطـــئ وتبعـــث المتكلف منها الطمع ومنها الشوق ومنها الطرب ومنها الغضب"[(٢)].

---

(١) العمدة جـــ١/ ١٢٠.
(٢) الشعر والشعراء جـــ١/ ٧٨.

فإشارته بقوله: "الشوق" يمكن أن تعد محفزاً انفعاليا للحنين عند ابن عنين و"الغضب" محفزاً للهجاء، فشعر الحنين جاء لموقف الشوق إلى الوطن والهجاء لموقف الغضب من المهجويين، وقد يجمع الغرضين أمر خفى فى نفس الشاعر، فهما قد جاءا لموقف غاضب عصف بالشاعر، ولعل هذا الموقف الغاضب منه فى الحنين والهجاء هو الذى أضفى عليهما الحيوية والجدة، فجاء الحنين إلى دمشق حاراً فيه التلهف والتحرق والهجاء حاراً مراً صعباً على نفس المهجو، فالموقف الغاضب بارز فى الغرضين فشعر الحنين دار الغضب فيه حول لوعة الفراق والتشوق إلى الديار والأهل، بينما تجاور الغضب فى الهجاء إلى الغيظ والحقد وتمنى هلاك المهجو.

ومن منطلق توحد العاطفة من العامل الانفعالى بين الحنين والهجاء، فقد تشكلت عدة ثنائيات فيهما منها:

❖ فى الحنين نجد:

الإحساس بالبعد.

الثقة بالنفس.

العودة للديار.

الإحساس بالظلم والغبن.

المجاهرة بالدفاع عن النفس.

التقدير العميق للوطن.

الشعور بعظمة الوطن والإحساس النابض به.

الصدق الشعورى.

تحدى النفى.

❖ **وفى الهجاء نجد:**

الشعور بالانتقام والتشفى من المهجو.

مواجهة المهجو.

الشعور بالانتصار النفسى فى الهجاء.

عدم التقدير لمن تسبب فى نفيه.

الصدق الشعورى فى البغض والكره وتحدى الأشخاص.

الشعور بضعة الآخرين

إعلان السخط والبغضاء لمن يهجوه.

تمنى خلو الوطن من هؤلاء الذى قصدهم فى هجائه.

الخاتمـــــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمـــد – ﷺ – وعلى آله وصحبه.

وبعـــــــد:

فقد شكَّل ابن عنين من شعر الحنين والهجـــاء ثنائيـــة فنيـــة ملموسة، بحيث يجد القارئ صدى أحدهما فى الآخر، فيقـــرأ الحنـــين ليجد الهجاء ، ويقرأ الهجاء ليلتمس الحنين فيه، فهما قد نبعـــا مـــن تجربة شعرية غير مفتعلة، تكاد تكون واحدة، بخلاف الكثيـــر مـــن الشعراء الذين ينفصل لديهم الفنين، ونشأ ذلك من أسباب متعددة، فقد نفى من وطنه الذى يحبه بسبب فحش لسانه وبذاءة قوله، وما لبـــث فى غربته أن وصب هجاءه على من بوطنه من حكام ووزراء وكتاب وقضاة، فكان يحن ويهجو فى آن واحد، وزاد من بواعثهما اصتدامه بالغربة ومفارقته لوطنه غصبا بينما رأى آخرين فى وطنه جـــديرين بالنفى منه، مما زاد العصيان والنقمة فى نفسه على هؤلاء فواجههم بأقبح القول وأعنفه، ولذلك ارتبط الحنين بالهجـــاء بعلاقـــات فنيـــة ملحوظة فى شعره، فقد جعل الهجاء عقابا للقائمين على دمشق التى نفى منها، فنقد أقوالهم وأفعـــالهم وعـــاداتهم، واســـتعمله تأديبـــاً واستخفافاً بهم، وفى حالات استرخاء نفسه وخلوه بها كـــان إنشـــاد الحنين ليعيد لنفسه التوازن من آلام الغربة وشقائها.

وقد صدر الحنين عن ملامح موضوعية منها الحنين إلى طبيعة دمشق والاندماج فى المظاهر الكونية، والحنين إلى الأماكن والبلدان، وذكريات الصبا وأيام الشباب، وكانت له وسائله الفنية فى الحنين فاستخدم الرمز مثل نوح الحمائم والدعاء للوطن بالسقيا والرحلة ووصف الظواهر الكونية، بينما وجه هجاءه لهؤلاء الذين ينعمون بالإقامة والدعة والنعيم فى وطنه من ولاة ووزراء وقاضاة ووعاظ وفقهاء وعمال وكُتاب؛ فجنايتهم على وطنه تجعلهم فى نظره فى منفى أبعد منه، ولذلك لم يجد وسيلة انتقام شديدة منهم إلا فاحش القول، فبيّن جرائمهم ومفاسدهم السياسية والاجتماعية والشخصية، فكان لاذعاً فكها ساخراً منهم.

وظهر الحنين والهجاء متعانقين فى القصيدة من خلال وسائل فنية لا تخفى مثل مزجهما فى مطلع القصيدة وارتباطهما بحيث يكونان غرضاً واحداً، وقد كشف الغرضان عن نفس شاعرة تتألم وتحزن وتبكى وتسخر وتمزح وتفرح فى آن واحد، ليدل ذلك على حالة نفسية حزينة وواقع لم ينسجم الشاعر معه.

ولأن التجربتين كانتا فى وجدانه لا تفارق أحدهما الأخرى لا ينظم فى واحدة إلا والأخرى حاضرة، فقد اتحدت الظواهر الثنائية الأسلوبية والفنية فيهما، مثل: توظيف التراث والتاريخ والحكمة والمبالغة والبديع، والثنائية الفنية تجلت فى مخاطبة عاطفة القارئ بالخير – الحنين – والشر – الهجاء- فى لحظات شعورية واحدة – لا تباين فيها.

ومع أن الحنين والهجاء هما طرفا نقيض إلا أن ابــن عنــين جمع بينهما فى عاطفة واحدة، فقال ما يرقق القلب فى الحنين ومــا يُخجل فى الهجاء، والأمران صورة صارخة لنفسه التى تجمــع بــين حب الوطن والشوق إليه وتصوير عيوب الآخرين والسخط عليهم.

والله الموفق

دكتور/ محمد عبد الله عباس

المراجـــــع

١- أبو نواس – السيد محسن الأمين – طبعة دار الهادى للطباعة – الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٢- الأعلام – خير الدين الزركلى – طبعـــة دار العلـــم للملايـــين – بيروت الطبعة الخامسة ١٩٨٠.

٣- أنساب الأشراف للبلاذرى – تحقيق د/ سهيل ذكـــار، د/ ريـــاض زركلى – طبعة دار الفكر – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٧هـــ - ١٩٩٦م.

٤- البداية والنهاية – ابن كثير – تحقيـــق د/ عبـــد الله بـــن عبـــد المحسن التركى طبعة دار هجر للطباعة والنشر – الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٥- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام – الحافظ شمس الدين الذهبى – تحقيق د/ عمر عبد السلام تدمرى – طبعة دار الكتاب العربى – الطبعة الأولى ١٤٨١هـ - ١٩٩٨م.

٦- دراسات اجتماعية فى الأدب الأيوبى والمملوكى د/ شفيق عبـــد الرحمن – طبعة دار يافا العلمية – عمـــان – الطبعـــة الأولـــى ٢٠٠٩م.

٧- دراسات فى الأدب العربى فى ظل الدولـــة الأيوبيـــة – د/ نـــاظم رشيد – طبعة دار المناهج للنشر – عمان – الأردن – الطبعـــة الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٨- رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية – د/ مصطفى الشكعة – الدار اللبنانية – الطبعة الرابعة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٩- سير أعلام النبلاء – شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى – تحقيق بشار عواد معروف، د/ محى هلال السرحان – طبعة مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

١٠- شذرات الذهب – لابن العماد الحنبلى طبعة دار المسيرة – بيروت – الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١١- شرح ديوان كعب بن زهير – صنعة الإمام أبى سعيد السكرى – تحقيق عباس عبد القادر – طبعة دار الكتب والوثائق القومية – مركز تحقيق التراث – الطبعة الثالثة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

١٢- الشعر والشعراء – ابن قتيبة – تحقيق أحمد محمد شاكر طبعة دار المعارف بمصر ١٩٨٢م.

١٣- العبر فى خبر من غبر – الحافظ الذهبى – تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيونى زغلول – طبعة دار إحياء التراث العربى – بدون تاريخ.

١٤- عصر الدول والإمارات – مصر – الشام – د/ شوقى ضيف – طبعة دار المعارف بمصر – ١٩٥٤م.

١٥- العمدة – لابن رشيق – تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد – طبعة دار الجيل – بيروت – لبنان.

١٦- فتح القدير – الإمام محمد بن على الشوكانى – المكتبة العصرية – جدة الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
١٧- الفتح القسى فى الفتح القدسى – عماد الدين الأصفهانى – طبعة الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٦٥م.
١٨- مجمع الأمثال للميدانى – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – طبعة عيسى البابى الحلبى ١٩٧٨م.
١٩- معجم المؤلفين – عمر رضا كحالة – دار إحياء التراث العربى – بيروت – بدون تاريخ.
٢٠- منهاج البلغاء وسراج الأدباء – حازم القرطاجنى – تحقيق محمد حبيب بلخوجة – الطبعة الثالثة – دار الغرب الإسلامى ١٩٨٦م.
٢١- النجوم الزاهرة – جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى – طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومى – بدون تاريخ.
٢٢- نقد الشعر – قدامة بن جعفر – تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجى – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت – بدون تاريخ.
٢٣- وفيات الأعيان – بن خلكان – تحقيق إحسان عباس – طبعة دار الثقافة – بيروت – بدون تاريخ.

بعض المراجع المضافة حديثاً :

١. الديوان صـ ٣
٢. الديوان صـ ٤
٣. الديوان صـ ٥
٤. الديوان صـ ٩٤
٥. الديوان صـ٢١١
٦. هـ طـ موضع في الفوطة من دمشق
٧. الحدالي : موضع بالشام يعرف بالسماوة
٨. الماطرون : موضع بدمشق